دفتري المُهترِئ

هذا الكتاب سيكون لقارئ واحد،
أنت الذي لا أعرفك

أستير ثابت

رفتري المهترئ

أستير ثابت

اسم الكتاب: دفتري المهترئ
نوع الكتاب: نصوص
الكاتبة: أستير ثابت
التصحيح اللغوي: أستير ثابت
تصميم غلاف: فاطمة محمد
التنسيق الداخلي : فاطمة محمد
الناشر الإلكتروني: دار ياقوت للنشر والتوزيع
الإصدار الإلكتروني الأول – 2025

جميع الحقوق محفوظة © للكاتبة والناشر
لا يجوز نسخ أو إعادة نشر أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة دون إذن مسبق.

هذا الدَّفتَر ليسَ أنيقًا، أوراقُه بَاهتة، وَالحُرُوفُ فيه مُتعبَة.

هذا الكتابُ إلى مَن ملأتُ دفتري بأصواتهم، إلى الوعودِ التي أنكرها أصحابُها، إلى الأماكنِ التي أصبحت فارغة، إلى دفتري الذي دُفنتُ فيه أحلامي، وأثقلته بحروفٍ يفوح منها الخوف، ستقرأ هنا ما تبقّى مني، ما استطعتُ أن أخرج به من رحلةٍ قد سرقت عمري، وأحلامي، بل وروحي أيضًا، أحاول هنا أن أتخلّص من آثارِ أيديهم التي بَصمتْ على قلبي،
هنا أكتبُ كي أستطيع أن أُكمل ما تبقّى من حياتي
وتذكر، هذه الصفحاتُ كُتِبت لي قبل أن أكتبها لك فلا تنتظر من هذه الصفحات أن تجعلك تنسى، فلن ننسى، نحن هنا لنتذكّر
هذه الصفحات تحتوي على كل ما لم أستطع قوله في وقته المناسب
هذه الصفحات كُفكفت بحُرقة لتُطوى، أو ربما تُحرَق

كالعادَةِ، أكتبُ عندما أضلّ، وعندما لا يُسعفني صوتي على الصُّراخ، أمسكتُ بالورق، وأنا لا أعلم كيف سأخطو حرفي الأوّل، وبعد كثيرٍ من التردّد، كتبتُ على صدر أوّل ورقة: كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ هل تمكّنتَ من تخطّي المادّة التي كنتَ خائفًا منها؟ هل لا زلتَ تتغزّل في عيوني سرًّا؟ هل تحسّنت علاقتُك بعائلتك؟ هل تسألك أمّك عنّي وتخبرك كيف حالها؟ هل صارحتَها بفعلتك، أم ألقيتَ اللوم عليَّ كالعادَة؟ والأهمُّ من ذلك، هل أنت نادم؟ أو حتى مشتاق؟ أم وحدي المغفَّلة التي قرّرت أن تُخرج طاقتها المتبقّية لتضعها في كتاب؛ لترى صورتها على الغلاف وتقرّر أن تقرأه، رغم نفورك من اللغة العربيّة، إلّا أنّك كنتَ تقرأ لأجلي، لا أنسى ذلك، أريد إخبارك أنّك، منذ رحلتَ، باتت حروفي باردة، لا تستهوي أحدًا لقراءتها، حروفٌ خالية من البلاغة والإحساس، أكتب فقط كي لا أختنق، ولكنّني لا أعلم ماذا أكتب، ولِمَن؟

قَرَّرتُ أن أشعُرَ بوجودِكَ حَولي، لأنَّني
— ويُؤسفُني قولُ ذلك —
اشتَقتُ لَكَ، لَم يَكفِني أنَّني أراكَ بينَ سُطورِ الكِتابِ الذي بَدأتُهُ للتَّوِّ، ولا في رائحةِ القَهوةِ الّتي أعددتُها لَكَ، ولا في أغاني "مَشروع لَيلى" الّتي كُنّا نَسمَعُها سويًّا، قَرَّرتُ أن أُكمِلَ موجةَ الحنينِ تِلكَ بأن أُشعِلَ تلكَ الشّمعةَ الّتي صَنَعتَها لي، لَم تَكُن هي مَن كانَت تَحترِق، بَل أنا، تَذَكَّرتُ قولَكَ لي إن تِلك الزَّهرة تُشبهُني، وأن رائحةَ الشُّموعِ تُذكِّرُكَ بي، لِذلِكَ صَنَعتَ هذه خُصوصًا لي، شَعَرتُ بالامتِنانِ جِدًّا، وكأنَّ إعطاءَكَ هذه الشّمعةَ لي في هذا الوقتِ بالتَّحديدِ قد جَعَلَني أصفحُ عنكَ، عن ما فَعَلتَهُ في الأيّامِ السّابِقة، وقُلتُ: رُبّما تَكونُ هذه بِدايةً جَديدةً، وأنَّني أبدًا، أبدًا، لَن أُشعِلَها، كَي أحتفِظَ بالذِّكرى كما هي، ولكِنَّني الآن قَرَّرتُ إشعالَها، لا أعلَمُ: ألأنَّني اشتَقتُ لَكَ، كما ذَكَرتُ في السُّطورِ العُلويّة؟ أم أنَّني قَرَّرتُ التَّخلُّصَ من هذه الذِّكرى؟ لا أعلَمُ حَقًّا يا عَزيزي، ولكن أتَدري أينَ المُفارَقةُ الّتي أضحَكَتني؟ أنَّ الشّمعةَ كانَت رَكيكةً جِدًّا، لا أقصِدُ أن أُهينَ صُنعَ يَديكَ، ولا الخاماتِ الّتي استَخدمتَها، بل أُريدُ إخبارَكَ أنَّ الشّمعةَ الّتي صُنِعَتْ لِتَحضُنَ النّارَ، لَم تَتَحمَّلِ النّارَ، وتَفَتَّتَت في أَقلَّ من ثانِيَة، لا، لَم تَذُبْ، بَل تَفَتَّتَت، شَعَرتُ أنَّها تَتبرَّأُ من الذِّكرى المُخَزَّنةِ بِها، وقَرَّرَتْ إنهاءَ حَياتِها، كانَ لَدَيكَ بُعدُ نَظر حينَ قَرَّرتَ صُنعَها لي؛ فعلاقاتُنا أيضًا لَم تتحمَّلْ شَرارة خلافاتِنا الخَفيفة، وتَفَتَّتَت

رفعت عيني عن الورق لعل كل ما يحدث فيلم سخيف أو حلم، وحتمًا سينتهي، وربما أراك تدخل من باب مكتبي الآن، وفي يدك كوب قهوة، تقبّل جبهتي وتخبرني عمّا أكتب، أقرؤهُ لكَ، ونجلس طيلة الليل نتحدث، ولكني لا ألمحك، يقولون إنه قد مرّ على رحيلك عام، وقلبي يُصِر على أنها مئات الأعوام، فكيف لعام واحد أن يضرب يقيني في نفسي وفي كل ما هو حولي؟ حتى إنني أوشكت أن أُجن، كيف اختفت آثارك من حياتي في غمضة عين وكأنك لم تكن؟ يقولون لي إنك لم تعد هنا، ويجب أن أُخرجك من رأسي كي أستطيع أن أعيش، وكأن من السهل أن أستأصلك وأُلقيك خارج دماغي، وأفتح قلبي على مصراعيه لرجل آخر! لا، وألف لا.

أعي أنَّهُ لا فُرصَة لِمُشارَكَةِ تِلكَ الخِطاباتِ مَعَكَ، وأشعُرُ أنَّني سَأَظَلُّ أكتُبُ خِطاباتٍ لَن تَصِلَ إِلَيكَ حتّى آخِرِ عُمري، ولكِنني أُريدُ الِاطمِئنانَ عَلَيكَ، رَجاءً كُن بِخير، لَقَد كافَحتُ لِتَكونَ بِخير، وضَحَّيتُ بِنَفسي مِن أجلِكَ أَنتَ، أعلَمُ أنكَ لَن تُحِبَّ أحدًا مِثلَما أحبَبتَني، ولكِنكَ نَسيتَ أن هُناك أشياء يَحتاجُها الحُبُّ كَي لا يَذبُلَ، اعتَنِ بِنَفسِكَ، فَغَدًا رُبَّما تَنساني، لَن يَتبقّى لَكَ سِوى رَسائِلي الوَرقيّةِ الّتي أَهدَيتُكَ إيّاها، ورُبَّما بَعضُ ذِكرياتي العالِقةُ عَلى جُدرانِ روحِكَ، أمّا ذِكرياتي أَنا؟ فَلَم أعُد أُفَرِّقُ أكانَت حَقيقيّةً أم مُزَيَّفةً، ولكِن لا يَهُمّ، فَفي كُلِّ الأَحوالِ لَن نَعودَ أبدًا،

أعلَمُ أنهُ عِندما يقع ذلِك الكِتابِ بَينَ يَدَيكَ سَتَقولُ عَنّي مَجنونةٌ، كَيفَ اشتَقتُ إليكَ وأتحَرَّشُ بِكَ في نُصوصي، وفي نَفسِ الوَقتِ أُخبِرُكَ أَنَّنا لَن نَعودَ؟

أنتَ تَعلَمُ كَم ذِكرياتي ثَمينةٌ مَهما كانَت قاسيَةً، لِذلِكَ أكتُبُ كَي يَتَلطَّخ الوَرَقُ بِما تَلَطَّختُ أنا بِهِ، كَي يَستَطيعَ عَقلِي التَّنَفُّسَ مِن تِلكَ الذِّكريّاتِ الّتي تَجثو عَلَيهِ، أَمّا أَنتَ؟ فَلا تَعني لي...

مُلاحَظة: أرجو مِنكَ أن تُحرِقَ رَسائِلي، فَأَنتَ لا تَستَحِقُّ أَن تُكشَفَ حُرمَةُ مَشاعِري لَك.

لَم يَبدأ الفُراقُ حينَ أخبَرتَني أنكَ لن تَستَطيعَ أَن تُكمِلَ مَعي، بَل بَدأ حينَ رَأيتُكَ تَنسَحِبُ مِن حَياتي بِبُطءٍ، تَخَلىَّ مَسؤوليّتُكَ مني، وتُديرُ بظَهرِكَ عَني
حينَ أخبَرتَني أنكَ تَشعُرُ بالوَحدَةِ حتّى وأنتَ مَعي، ولكِن مَوهِبَتي في تَصليحِ كُلِّ شَيءٍ كانَت تَمنَعُني مِن تَصديقِ أننا انتَهَينا
رُبَّما كُلُّ اللَّحَظاتِ بَعدَ أن قَرَّرتَ الرَّحيلَ أَصبَحَتْ بِلا قِيمَةٍ، مَهما حَملت الأَيّامُ إنجازاتٍ ومَواقِفَ هامّةً، فَكُلُّ شَيءٍ بِلا قِيمَةٍ ما دُمتَ لَستَ هُنا.

⋆｡°☆ ☆°｡
⋆｡°☆

لا أعلمُ إلى متى ستُكَبِّلُني رائحةُ ذكرياتِكَ وتُرجِعُني إليكَ كالأَسير، تُقَيِّدُ أطرافي وتَشُنُّ عليَّ حربًا كي تُذَكِّرَني أنّني لن أنسى ولو بعد حين، وأنَّ مشاعري المُلتَهِبةَ نحوكَ لن تَهدأ.

حاوَلتُ أن أصْمُد مُنذُ أن ترَكتني، أُداعِبُ الأَيّامَ لتَمُرَّ، أَنجحُ تارةً وَأتعثَّرُ تارةً، إلى أن أتى أغسطس بِطَلَّتِهِ البَهِيَّة، فِي أغسطس يُصْبِحُ العطرُ أخطَرَ مِن قاتِلٍ مَأجُور
أستيقظُ فَزِعًا فِي مُنتَصَفِ اللَّيلِ لِأَبحَث عَنكَ، أتوَهم وُجُودَكَ، وَيَحدُثُ تَسرِيبٌ لِمَوجاتِ حَنِينٍ مُباغِتَةٍ، كُلُّ الأَشياءِ تَنظُر إليَّ بِحنَقٍ مُتَسائلَةً عَنك؛ أوراقُ دَفتَري الَّتِي كانَت تُمْلَأُ بِاسمكَ، تلكَ الصُّوَرُ المُعَلَّقَةُ عَلى الحائط، وَالأَسورَة التي أعطَيتنِي إياها، جَميعُ أشيائِي تَلُومُنِي عَلى رَحِيلِكَ، وَكَأَنَّ الخَطَأ خطئِي وَحدِي.

⋆｡°☆ ☆°｡
⋆｡°☆

أوراقُ دَفتَري مُلتَهِبةٌ، أشعُرُ بسُخونةِ الوَرَقِ بَينَ يَدَيَّ، لَم أُسَمِّه مُهترِنًا عَبَثًا، ولا أعلمُ أذلِكَ بِسَبَبِ ما يَحمِلُهُ مِن زَفَراتٍ طَويلةٍ، هَواجِس لَيليّةٍ، وبَعضِ الأُمنِيّات غَيرِ المُكتمِلَة، مع القَليلِ مِن عَثَراتِ الطُّرُقِ وبَصَماتِ بَعضِ الأَيادي التي قَرَّرت فَجأة أن تَنزَلِقَ، كُل شَيءٍ في هَذا الدَّفتَرِ باهِتٌ، مُحتَواهُ لا يُناسِبُ مَظهَرَهُ الأَنيقَ، كذلك أَنا
عِندما أمسَكتَ بِيَدَيَّ احتَلَّني الخَوفُ مِن أن تَكونَ مُجرَّدَ بَصمَةٍ إضافيةٍ أُضيفت إلى القِصص الَّتي تَحمِلُها يَدَيَّ، ثُمَّ تَذهَبَ، نَفَيتَ بالطَّبع واتَّهَمتَني بالوَسوَسَةِ، ولكن ها قَد كان، لم تَستطع المُنظفاتُ أن تُزيلَ آثارَكَ مِن يَدَيَّ... أو قلبي.

حين أقرأُ كتابًا أشعُرُ بِصَوتِكَ يَتَسَرَّبُ مِن نافِذَتي مُتَسائِلًا عَمّا أقرَأ، تَقِفُ بَينَ السُّطورِ لِتُشير إلى بَعض الأَجزاء التي تُريدُ أَن تَلفِتَ نَظَري إليها، ومِن سُوءِ حَظك أَنَّ ما أقرَؤُهُ مُنذُ أن تركتَني رَكيكٌ، يَمتَازُ بِالرُّومانسيّةِ الحَزينةِ؛ ذلِك البَطلُ الّذي أصابَته أزمَةُ مُنتَصَفِ العُمر، وَقَرَّرَ فَجأةً أنه لا يُحِبُّ تِلك الفَتاة، فَيُقَرِّرُ الرَّحيلَ، وَلَم يُفَكر أبدًا في العَودَة، وَلكن دَعني أسألكَ: ألم يَرغبْ وَلَو مَرة أن يُخبِرَها بِشَيءٍ تَأخَّر عَن قَولِهِ؟ أَلم يَندَمْ وَلَو لَحظَةً؟ دَعنَا مِن النَّدَمِ، فَهذا لا يَتَناسَبُ مَع شارِبِكَ، ألم تَشتَقْ إلى أَيّامِنا مَعًا؟ إن كانَت بِلا قِيمَةٍ إلى هَذا الحَدِّ، فَلِماذا أكادُ أجنُّ مِن فَرطِ حَنيني؟

حينَ أكتبُ أشعرُ بكَ تقِفُ خلفي، تتلصَّصُ على حروفي لترى كيف سأكتبُ عنكَ هذه المرَّة، وأيُّ مصطلحاتٍ وأيُّ تعبيراتٍ جماليةٍ سأستخدمُها، تلكَ التي لطالما وصفتَها بالمبالغة، وما المبالغةُ التي قد يصنعُها قلبٌ مفطور!

اليومَ أريدُ إخبارَكَ أنَّ كلَّ شيءٍ أصبحَ بلا لونٍ، بلا طعمٍ، حتّى الأحلامُ التي كتبتُها بيدي رأيتُها وهي تتلاشى واحدةً تلوَ الأُخرى، تغيَّر منظوري لكتابتي، فمؤخرًا أصبحتُ أُفضِّلُ أن أقرأ لا أن أكتب، أبجديَّتي لم تَعُد تتَّسعُ لهذا الكمِّ الهائلِ من الحزن، فبدأتُ أبحثُ عني في نصوصِ الآخرين، أقرأُ بكاءَهم لأبكيَ معهم، وأستمعُ لأوجاعِهم التي تُشبهني، لأنني لم أمتلكْ قدرةَ الإفصاحِ مثلَهم، وإن أفصحتُ، ماذا سيتغيَّر؟ أيُّ أجزاءٍ بداخلي ستُنقَذْ؟ جميعُها تحوَّلت إلى رمادٍ، ولم يَعُد بداخلي شيءٌ يمكنُ إنقاذُه لأُحادثَكَ ببالغةٍ عن المقاومةِ والنهوضِ، وكيفَ يُخلَقُ الفنُّ من رحمِ المعاناة، أصابعي مَلَّتِ الكتابةَ عن المعاناة.

هل تعلم يا عزيزي، أنني أحبُّ الورودَ كثيرًا؟ لا، ليس لأنني فتاة، وعقل الفتيات مُبرمجٌ على حُب الورودَ والشوكولاتةَ والحُلَّةَ، لا، ليس هكذا، ولكن منظرهم يسرّني ويبث شعورًا دافئًا في قلبي، ورُبما لو تحدثنا من الطبيعة الأيديولوجية، فرُبما لأنني كاتبة وأميل إلى الأفعال الشاعرية كتقديم الورد مع رسالة كُتبت خصيصًا لي، ولكن أتدري أين المشكلة؟ أن علاقتي بالورود أصبحت ضعيفة نوعًا ما، إن كنتَ لا تعلم، فأنا أمتلك صندوقًا في غرفتي به كل الورود التي حصلت عليها على مدار حياتي، كل وردة بلون، ورائحة، وذكرى مختلفة، ولكن الشيء الوحيد المشترك بينهم هو أن أصحابهم جميعًا رحلوا، أخشى أن ترتبط عادة إهدائي الورود بالرحيل؛ فأصبح أمقُتُهم وأتجنب الحصول عليهم، أمس مررتُ بجانب محلِّ الورود الذي ابتعتَ لي منه آخر مرة، وكنت أصوّرك بشغف وأنت تُعطيني إياها في يدي، كانت أول ورود أحصل عليها منك، وأما الآن فأُجزم أنها الأخيرة، انتفض جسدي وحاولتُ التملّص من الذكرى وأن أُشتت نفسي ولا أنظر للمحل، ولكن الذكريات باغتتني وتذكرت كيف كنت تنظر إليّ وقتها وأنت تُعطيني الورود، وقرأتُ رسالتك ذات العربية الركيكة وخطك المموّج التي تخبرني فيها كم الورود تشبهني وكم تحبني، أنت رحلت، ولكنك تركت لي شيئًا على مرمى بصري طوال الأربع والعشرين ساعة، لا تخبرني أنني يمكنني التخلص منهم وأن أُعفيك من نصوصي الحزينة تلك، فأنت أكثر من يعلم أنني لا أتخلص من ذكرياتي حتى لو جَثمتْ على صدري وجعلتني أسقط باكيًا، تظل ثمينة.

مُنذُ طُفولتي وأنا أُوصَفُ بالمَطْيُورَةِ، في المَرحلةِ الابتدائيّةِ كانت هذه المُلَاحَظَةُ تتردَّدُ على مَسامِعي كُلَّما رآني أبي، أصطَدِمُ بِهذا وذاكَ، وأتعثَّرُ في الطَّريق، وأعودُ ومَلابسي مُلطَّخَةٌ بالطِّين، وعلى يدي أثرُ جُرحٍ، وإمَّا أن أسقُطَ أنا أو أُسقِطَ شيئًا ما، ولا يَتوقَّفونَ عن تَوبِيخي؛ لأَنَّني فتاةٌ، ويَجِبُ أن أكونَ كالأميرات، أيُّ أميرَةٍ تِلكَ التي تَتعثَّرُ في الطِّين، وذِراعُها يَملؤُه الخُدوشُ إثرَ رُكوبِها دَرّاجتَها؟

ويُضافُ إلى أنَّني مَطْيُورَة في الغالِبِ، أنني ثَرثَارَة، كُنتُ دومًا سَببَ ضَحِكاتِهِنَّ في تِلكَ التَّجمُّعات؛ أرتَطِمُ بالأرضِ فيُخبِرُني أحَدُهُم أنَّ هذا بِفِعلِ الجاذبيَّة، وأنَّهُ كُلَّما زادَ وَزني جَذَبَتني الأرضُ إليها أكثر، أينشتاينُ زمانِه! مَن الذي أخبَرَ المِصريين أنَّ هذه كُوميديا؟

وفي أوقاتٍ أُخرى أسقُطُ، وقَبلَ أن أتحسَّسَ الجُرحَ وأرى مَدى عُمقِه، أنهَضُ سريعًا لأُنفِّضَ نَفسي وأتأكَّدَ أنَّه لم يَرَني أحد، الحَمدُ لله، جَميعُهُم مُنشغِلون، ولا أنسى يومَ كُنّا مُجتَمِعينَ عند أَصدقائِنا وسَقَطتُ فجأةً، فصاحَت الفَتياتُ: "حَصَل إيه؟" أجَبتُهُنَّ: "اتكَعبَلتُ" "اتكَعبَلتِ في إيه؟" "اتكَعْبَلتُ في نَفسي" فانقَلَب الفَزعُ إلى صَخَبٍ وقَهقَهةٍ، شارَكتُهُنَّ الضَّحكَ، وبَعدَ محاولاتٍ لإكمالِ اليومِ طبيعي اكتَشفتُ أنَّ ساقي قد كُسِرَت، حاوَلتُ أن أجِدَ مُبرِّرًا مَنطِقيًّا لأُمّي؛ لأَنَّه لو أقسَمتُ بِكُلِّ الكُتُبِ السَّماويَّة أنَّني اتكعبَلتُ فَقَط، لما صَدَّقتني

وقد خانني القَولُ حينَ أخبَرتُكَ أنَّ هذه العباراتِ كانت تَتردَّدُ على أُذُني في المَرحلةِ الابتدائيَّة، فها أنا قد قارَبتُ على التَّخرُّجِ مِن الجامِعة، وما زِلتُ تِلكَ الطِّفلَةَ المَطْيُورَةَ التي ترى

ثُقبَ سَفينتِكَ فتُقرِّرُ الإبحارَ معكَ، لأَنَّني اعتَدتُ أن أعيشَ في دورِ المُنقِذ، أتُعاني يا حَبيبي؟ دَعني أُساعِدكَ، أيَكرَهُكَ الجَميعُ يا عَزيزي؟ دَعني أُحِبُّكَ، أيَبتعِدُ عنكَ الأصدقاءُ؟ لا تَقلَق، أنا لَن أبتعِد، ورَغمَ تَنبيهاتِ بَعضِ المُقرَّبينَ منِّي أنَّني لَستُ أُمكَ ولَستُ مُضطرَّةً لِلتعامُلِ مع سَوداويَّتِكَ، إلَّا أنَّني أصرَرتُ، ورَغمَ وُضوحِكَ لي مِن النَّظرةِ الأُولى، إلَّا أنَّني تَعمَّدتُ تَجاهُلَه، وإلى الآنَ لا أعلَمُ لِماذا، وأعطَيتُكَ أَجزاءً مِنِّي كَي أُصلِحَكَ، فَبَقِيتُ أنا كَلُعبةٍ بَازل غيرِ مُكتَمِلة، أنا تِلكَ المَطْيُورَةُ التي عَلَّمتْ فيَّ الدروس بَدَلًا مِن أن أتعلَّمَ مِنها، أنا التي اندَفَعَت تُجاهَكَ بِكامِلِ قَلبِها حتّى لا أذكُر إلى كَم قِطعةٍ تَهشَّمَ، أنا المَطْيُورَةُ التي كَذَبَت عَيناها وصَدَّقتكَ.

نَصَحَتْنِي صَديقتي أن أتوقَّفَ عنِ الحديثِ عنكَ؛ لأنَّ ذلك مُضِرٌّ لصحَّتي، وأنْ أتوقَّفَ عنِ القهوةِ؛ لأنَّها تُغَذِّي أشباحَ عَقلِي وتَزيدُ الأَرَقَ
وبَدَلًا مِن أنْ أُغَذِّيَ عَقلِي بالأكاذيبِ والمُبَرِّراتِ الواهِيةِ، أن أتناولَ الخُضْرُواتِ والبروتين، أضحكتنِي فَلسفتُها؛ لأنَّني هكذا سأتخلَّصُ مِنَ الوَزنِ، لا مِنكَ، ولكنْ فِكرتُها تَبدو مَنطقيَّةً نَظريًا فَقَط؛ إنَّما في مِيدانِ التَّجربةِ، عَينايَ تَتذكَّرانِ ما حَدَث، وتَذرِفانِ الدُّموعَ دُونَ أن أُدرِك السببَ، ويَدايَ أيضًا أصبَحتا تَرتَجِفانِ كُلَّما تحدثتُ عنك، ولكِنَّنِي مُجْبَرةٌ على الحديثِ عنكَ، إنني لا أرثي ذِكراكَ، ولا أُنعِشُ ذاكرتي، إنما فَقَط أُحاوِلُ أن أُخرِجَكَ مِن داخِلِي، تِلكَ المُحاوَلاتُ الفاشلةُ التي سَيَأتي يومٌ وتَنجَحُ فيه، ولَن يَحْكُنِي قَلبي عندَ ذِكرِ اسمِكَ، أعلَمُ أنَّني سَأعتادُ شُعورَ المَرارةِ، وسَأتصالَحُ مع أفكاري، وسَأعلَمُ أنَّني كافِيَةٌ، سَأعودُ للكِتابةِ بشَغَفٍ، وستَعودُ لي حُروفي، وسَأُدرِكُ أنَّني أستَحِقُّ شيئًا أفضَلَ مِن أن أُحبَسَ في قَفَصك.

هل تعلمُ يا عزيزي أنَّ المسافةَ التي بيننا لم تُشكِّلْ يومًا عَقبةً؟ تلك الحواجزُ الفاصلةُ التي سمَّوها حدودَ البلادِ لم تَمنعْني أن أمسَّ قلبَك، ولم تَمنعْني عن رؤيةِ روحِك، ولكنَّ المشكلةَ أن تُصبِحَ المسافاتُ بين القلوبِ، لا بين الأجسادِ؛ وقتَها سأراكَ تتسكَّعُ في منزلي، وتُحادثُ أُمِّي، وتَطلبُ منِّي أن أُعدَّ لك القهوةَ، ولكن عندما أنظرُ في عينيكَ لا أراكَ، لا أجدُ ذلك البريقَ الذي كان يُشعرُني أنَّك على قيدِ الحياةِ، أنَّك تُحبُّني وتُريدُني، أن تُصبِحَ عيناكَ غريبةً عنِّي، كان ذلك أكبرَ كوابيسي، كابوسًا لن يَنتهيَ أثرُهُ بقبلةٍ على جبهتي وحضنٍ دافئٍ، بل كابوسٌ باشتراكٍ لا نهائيٍّ، فكُلَّ يومٍ أرى عينيكَ، أتذكَّرُ كم كنتَ تعني لي، ولماذا سمحتُ أن تزدادَ الفجوةُ بيننا؟ أَلومُك قليلًا، ثم أستعيدُ رُشدي، وأقولُ: ما حدثَ قد حدث، وأنَّه لم يكن في يدي أكثرُ من ذلك لأَفعله، أتقبَّلُ ما حدثَ بيننا، ولكنَّ ذلك لا يَمنعُ تلك المرارةَ أن تزورَني وتَجعلَني أكتبُ إلى أن تُؤلِمَني يدي، أكتبُ بدلًا من لَومِك على شيءٍ لن يتغيَّر، حتى إن أقسمتَ لي أنَّك عُدتَ، فبريقُ عينيكَ لا يزالُ مفقودًا.

خُطواتي على الأرضِ في هذا التوقيتِ أثقلُ من خُطواتِ كتيبةٍ من الجنود، أعلَمُ كم تَلعَنُني وتَرفُضُني لأنَّني أخطو عليها بقلبٍ مُحطَّمٍ مُمتلئٍ بالخيبات، وبأفكارٍ وصراعاتٍ في عقلي، الأرضُ ترفضُني، حتّى الهواءُ لا يصلُ إلى رئتَيَّ، هذه المرّةُ أعلَمُ أنَّ المشكلةَ ليست في نسيجِ قلبي الضّعيف، ولا في إجهادِ رئتَيَّ بسببِ تلك السِّيجارةِ التي في يدي، بل هناكَ شيءٌ يَجثو على أنفاسي، ويُثقِلُ حركتي على الأرض، ويجعلُني أجرُّ خلفي العديدَ من الأسئلةِ التي لم أجدْ إجاباتٍ لها، أنتَ تَعلَمُ ماذا سأخبرُك الآن، كم أكرهُ أغسطس ياعزيزي، إنَّهُ يطرَحُني أرضًا ويَسرِقُ أشيائي الثَّمينة، أشياءَ لم أجرؤ على تَخيُّل أنَّها سَتُوضَعُ في ذلك الصُّندوقِ الأسودِ الذي لا يُفتَحُ إلّا من حينٍ لآخَرَ لأرثيَ وجودَها وأُعيدَها إلى مكانِها، أغسطسُ مُثيرٌ للاكتئاب، لكنَّ أسبابَ اكتئابِه أيضًا مُثيرةٌ للحزن، في أيّامِه نكهةُ حزنٍ مُختلفة، ففي أغسطسَ يرحلُ الأحبّةُ وتُشرَدُ الذكريات، وفي أغسطسَ الكثيرُ من الوعودِ التي أنكرَها أصحابُها، كنتُ أتمنّى لو تستطيعُ هيئةُ الأرصادِ الجوّيّةِ أن تُحذِّرَنا من أنَّ أغسطسَ يأتي بعاصفةٍ شديدةٍ تقتلعُ جذورَ جميعِ العلاقات، وليست رياحًا عاتيةً فحسب، بل حتّى بعدَ مرورِها تُغيِّرُكَ تمامًا، وتجعَلُ أعضاءَ جسدِك تستكينُ، ورغبتَك في القيامِ بأيِّ شيءٍ تنخفض، فراشاتُ معدتِك تدخُلُ في سباتٍ عميق، وتنسدِلُ خُصلاتُ شعرِك بانهزامٍ على وجهِك، هذه الرّياحُ مُحمَّلةٌ بالأتربةِ مع الكثيرِ من الذكريات، وقد تتسبَّبُ في إثارةِ بعضِ المشاعرِ الدفينةِ التي تحاولُ تجاهُلَها بقدرِ الإمكان، كي لا تنجرفَ في شلّالٍ من التّعاسةِ قد لا تخرُجُ منه سليمًا.

كان بإمكانِك إنقاذُ أيِّ شيء، تلك الصُّورةُ المُعلَّقةُ على الحائط، التي تعلمُ جيِّدًا أنَّهُ بسببِ ما حدثَ في علاقتنا من تغيُّراتٍ نفسيَّةٍ أدَّت إلى حرمانِك من معاودةِ التقاطِ مثلِ هذه الصورة، أو بمعنى أصحَّ، بمثلِ مشاعرِ هذه الصورة، ولا تُخبرني أنَّك فعلتَ ذلك عن قصدٍ؟ لأنَّك لا تتحمَّلُ أن تُدركَ أنَّ ما تبقَّى لك هو فقط بعضُ الصورِ المُعلَّقةِ، والذِّكرياتُ المُخزَّنةُ في عقلِك، والأخرى المُفحَّمةُ إثرَ الحريق، هل احتراقُ ذِكرياتِك قد هدَّأ من ثورانِ عقلِك؟

هل تشعرُ بالتحسُّنِ الآن يا أحمق؟

كان بإمكانِك المحاولة، لا أن تنظرَ إلى منزلِك وهو تأكلُهُ النيران، كان بإمكانِك التقاطُ ما تبقَّى منَّا، من صوتي الذي تُخزِّنهُ حيطانُ هذا المنزل، من نظراتي التي كانت تتوسَّلُكَ للبقاء، من تفاصيلي الصغيرة التي لم تُلقِ لها بالًا، كان بإمكانِك إنقاذُ رسائلي القديمة، التي أجزِمُ أنَّني لا أستطيعُ أن أكتبَ لك غيرَها رغم وفرة حروفي، كان بإمكانِك إنقاذُ وعودِكَ، حديثِك المُنمَّقِ لي، إنَّك لن تتركَني أبدًا، على الأقلِّ كان بإمكانِك إنقاذُ رغبتي بك، قبل أن تُشاهِدَها بصمتٍ وهي تتآكَلُ

كم أنتَ مُغفَّلٌ يا عزيزي، كان بإمكان تلك الفوضى ألَّا تحدُث، لو فقط تذكَّرتَ كلَّ وعودِك الورديَّة، كان بإمكانِنا إخمادُ النارِ سويًّا، قبل أن يزيدَها الخوفُ واليأسُ وكلامُك السامُّ اشتعالًا، أمَّا الآن، فقد تملَّكت النيرانُ من كلِّ شيء، وأُقسمُ لك إنَّني كنتُ على أتمِّ الاستعدادِ لإخمادِ النيران بمفردي، لو فقط رأيتُ في عينيك تلك الرغبة، ولكنَّني لا أنسى منظرَ قلبي وهو على وشكِ الخروجِ من صدري، عندما رأيتُكَ تُحاولُ تَجنُّبَ النظرِ إلى تلك النيران، وكأنَّك لستَ أنتَ من أشعلَها! هذه اللحظةُ بالتحديد، أُقسمتُ أنَّها ستكونُ الأخيرة، واحترقَ المنزل، وصورُنا، وأسواري التي هدَمتَها لأجلِك، وأسرارُك التي كانت تُثقِلُ قلبي، وتقبُّلي لإحباطِك المُستمرِّ، واختلاقي لمُبرِّراتٍ سخيفةٍ لتصرُّفاتِك...

كلُّ ذلك احترق، ورُبما احترقتُ معهم.

قَد يَنسَى المَرءُ تِلكَ اللَّيَالِيَ الَّتِي جَعَلتهُ رَمَادًا، وَلَكِن مُحالٌ أن يَنْسى مَن أوقدَ حَرِيقَهُ، مَن نَظَر إلَيهِ وَالنَّارُ تَتأجَّجُ فِيه، وَفَضَّلَ ألَّا يَتَدَخَّلَ، لِأَنَّ فِي مُعتقَدِهِ أنَّ النِّيران سَتَهدأ بِمفرَدِهَا، وَرُبَّمَا أيُّ تَدَخُّلٍ خاطِئ مِنهُ سَيَزِيدُ الاشتِعَالَ
غَبِي! لَا يَعلَمُ أنهُ عِنْدَمَا تَهدأ النِّيرانُ، سَيَكُونُ كُلُّ شَيءٍ رُكَامًا، المَنزلُ وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكرَيَاتٍ، كُلُّ شَيْءٍ احتَرَقَ بِصَمتٍ يُؤسِفُنِي القَولُ، لَن تجِد مَا تُنقِذُهُ يَا عَزيزِي.

⋆｡˚☆ ☆˚｡
⋆｡˚☆

يُؤلِمني قولُ أمير عيد: «دي حِكمة الأيام، أكون في حياتك، بسّ مَليش مكان»
فإن لم يكُن لي أنا مكانٌ في حياتك، فلِمَن إذنْ؟
كيف لغيري أن يتسلّل إلى تفاصيلِ روحك، أن يقتسمَ قلبَك، أن يُجاوِرَ فكرك؟
كيف تُحدّثُ إحداهُنَّ عن الولَه، عن الحُبّ، وكأنّني ما كنتُ؟
أخبِرني، كيف ليدٍ غريبةٍ أن تستقرَّ في راحتِك مكانَ يدي؟
رُبّما يُؤذيني قولُه، لكنّ إصراره حين قال: «لو النهاردة مش يومنا، يمكن بكرة يكون»
جعلني أُدرِك أنّه لا يملِك أمرَه، أنّه مُجبَرٌ لا مُخيَّر،
وأنّه -رغم كلّ شيء- ما زال على أتمِّ الاستعدادِ أن ينتظر،
على أملٍ صغيرٍ، أن نكونَ يومًا ما معًا.

أيُّ حِكمةٍ تلك التي تضعني في المنتصف؟ لا غريبٌ فأرحل، ولا حبيبٌ فأُحتَضَن، إن لم يكُن لي أنا مكانٌ في حياتِك، فمَن ذا الذي يستحقُّه أكثر؟
أنا التي ظللتُ أطوي الشوقَ عنكَ كلَّ مساء، أُخبّئُ اسمَك في نصوصي وفي أدعيتي، فكيف لغيري أن يتسلّلَ إلى روحِك؟ أن يُبدد رائحتي برائحته، أن يلتقطَ الكلماتِ التي خُلِقَت لتُقال لي.

⋆｡°☆ ☆°｡
⋆｡°☆

كان يمكنني العُدولَ عنه، وأن أرضَخَ لكلِّ القوانينِ التي قالتْ بشكلٍ قاطع: "لا" لولا كوني كاتبة، والكُتّابُ يفهمون من معنى السعادةِ غيرَ ما يفهمه الناسُ جميعًا؛ يفهمون ماذا يعني أن نعيش تحتَ سقفٍ واحدٍ، وكلٌّ منّا يشعرُ بالغُربة
يَعلمون كيف ينتهي الزواجُ غيرُ السعيدِ بأطفالٍ غيرِ سُعداء، أطفالٍ هَشّةٍ تتصوّرُ جوعًا لأيِّ حُبٍّ مُلقى في الشوارع
يَعلمون أكثرَ من غيرهم ماذا يعني حُبٌّ، وكيف قد تتمحورُ ماهيتُهُ في أنّنا قد لا ننالُهُ أبدًا، ولكن رغمَ ذلك، لا نتوقّفُ عن الحُبّ.

وقفتُ على سطح منزلي، أمسك فنجان قهوة في يدي، وفي اليد الأخرى كتاب قد أهداني إياه شخص أحبه، بدأتُ أسترجع ما حدث في الأيام السابقة، وحاولت أن أجيب عن أسئلة كانت في عقلي ولكن بلا فائدة، تركتُ أشيائي ووقفتُ على طرف المبنى وبدأتُ بالدوران، قدم تخطو والأخرى بعدها، وصوت الموسيقى يعلو أكثر فأكثر، شعرتُ بتلك النشوة تضرب جسدي، لم أخشَ أن أسقط، فكل شيء من فوق يبدو صغيرًا، هدأتْ حركتي؛ لرؤيتي امرأة مسنّة قد وقفت في العمارة التي أمامي وكانت تنظر إليّ، لم أُرِد أن تعتقد أنني أحاول الانتحار وتُنادي على أحد لينقذني، فهممتُ بالنزول، جلستُ أُفكر في تلك العجوز، وقد خطر على بالي فيلم "هيبتا" ذلك المشهد عندما رأى البطل البطلة على السطح تتمايل، فذهب إليها وسألها: هل أنتِ حقيقية؟ وكانت ستثبت له مصداقية أنها حقيقية لا عفريتة بعناق، وقد حدث، شعرتُ أنها ستأتي إليّ وسأُعيد تمثيل ذلك المشهد، فكرتُ أيضًا فيما ستُفكر فيه، وهل ظنت أنني فتاة قررت الانتحار لأن حبيبها تركها؟ أو مراهقة طائشة تحب اللعب؟ لا هذا ولا ذاك يا تيتا، أنا فقط أُفكر، مخطئ من قال إننا كلما ارتفعنا تقل الجاذبية والهواء وكل شيء، فمن موقعي ذاك أُؤكد لك أن الأشياء تزيد لا تقل، الهواء شديد جدًا ويجعل أفكاري أخف، وأن ذلك الهواء الذي يداعب شعري ووجهي يجعلني أتذكر ذلك اليوم حينما كنتُ معه، كان الهواء بنفس الشدة، والقمر بدرًا كاليوم، كل شيء كان يبث فيّ الحنين تعلمين يا تيتا، إنني في اللحظة التي شعرت فيها أنني سأسقُط - أو في قولٍ فلسفي - سأحتضن الأرض، امتلكتُ ذلك الحب الكامل الذي يُحسّ للحظة واحدة ولا يأتي مجددًا، شعرتُ أنني حصلت على ما أريد، ولا يوجد شيء آخر أسعى له، فلماذا لا نضع نقطة النهاية هنا والآن؟

أمزح معك يا عزيزي، أو لا أمزح، ولكنك إن كنت معي الآن، ستفهم ما أقوله جيدًا

رفعتُ عيني، واستسلمتُ لدغدغة الهواء لذكرياتي، ونظرتُ إلى هاتين النجمتين، كانتا قريبتين من بعضهما، شعرتُ أنهما يتهامسان، أو أنهما عاشقان قد انفجرا للتو، وتشكّلا، وأخيرًا بعد سنوات ضوئية أصبحا بجانب بعضهما يتحدثان عن أمور الكون وما فاتهما، مثلنا تمامًا يا عزيزي

عزيزي، أوقاتٌ كثيرةٌ تُغدِقُ الكلماتُ يدي، ولا أكُفُّ عن الإمطار، ولكنْ أوقاتٌ أُخرى تُصبِحُ يدي كصحراءَ جَرداءَ، غيرَ قادرةٍ على إنتاجِ الكلماتِ، ولا حتى تجميعِهِنَّ في سُطورٍ تَليقُ بك

وأعتقدُ أنَّني الآنَ في المُنتَصَف، أركُضُ وراءَ إلهامي وكلماتي، وقد نجحتُ في جمعِ بعضِهِنَّ، ولكنّ البعضَ الآخَرَ شاردٌ، أُحاوِلُ جَمعَهُ

لذلك، أعذِرني.

⋆｡˚☆ ☆˚｡

⋆｡˚☆

هَل تَعلَمُ يا عزيزي، أنَّكَ حَتّى لَو كُنتَ مُستَعِدًّا لِفِكرَة رَحِيل أحَدِهِم عَنكَ، لَن تَسلَمَ أبدًا مِن الأَلمِ لَحظَةَ الفِرَاق؟ تَوقُّعُكَ أنَّ ذَلكَ الشَّخص سَيَنقُضُ وُعُودَهُ وَيَفسخُ عُهُودَهُ، لَن يَحمِيَ جَسَدَكَ مِن لَحَظَاتِ الِالتِيَاعِ الَّتِي سَتَجعَلُكَ تَوَدُّ تَقَيُّؤ رُوحِكَ، وسَتتذَكَّر كُل شيءٍ بِنفسِ الشِّدَّةِ، أو رُبَّمَا أكثَرَ، فقد يَحتَلُّ فِكرَكَ أفكَارٌ أخرَى، مِثل: أنكَ حَاوَلتَ كَثِيرًا مَعَهُ، فَلِمَ لَم يَنصَعْ لَكَ؟ ثُمَّ سَتَلُومُهُ قَلِيلًا، وَبِالطَّبعِ، سَتَتَذَكَّرُ الأَمَاكِنَ الَّتِي جَمَعَتكُمَا، وَحَسرَتَكَ وَأنت تَرَاهَا مَع غَيرِكَ فِي تِلكَ الأَمَاكِن الفراق مُؤذٍ لِأَبعَدِ حَدٍّ يا عزيزي.

إلى سيزيف

دعني أسألك سؤالًا:
هل كانت تستحقُّ الحياةُ أن ترفُضَ الموتَ لأجلها؟
أن تعصيَ الآلهةَ وتحبِسَ الموتَ نفسَهُ لتعيشَ أيّامًا إضافيّة؟
هل كنتَ تخشى الموتَ، أم تُحبُّ الحياة؟
لم أجد ردًّا، أنت مَن يمكنه أن يُجيبني، هل بعدما عُوقِبتَ بالحياة الأبديّة، لا زِلتَ تُحبُّها؟ وأجل، أتعمدُ قولَ "عُوقِبتَ" فأنا شخصٌ يرى أنَّ العُمرَ الطويلَ لَعنَة، فماذا عنكَ يا عزيزي؟
كيف الوضعُ معك، وأنتَ تُعيدُ أيّامكَ بنفسِ التَّسلسُل؟ تُدحرِجُ الصخرةَ؛ فتسقُط،
فتُدحرِجُها؛ فتسقُط،
أين الحكمةُ يا سيزيف؟
ولماذا حاولتَ الكَرّة؟
كيف علمتَ أنَّه يجب أن تُحاوِل مجدَّدًا؟ ولماذا لم تستسلِم حينَ وقعتَ؟
هل كان الأمرُ يستحقُّ حقًّا؟
وإن رَجعَ بكَ الزَّمن، هل ستختارُ تلك الحياةَ البائسةَ على الموت؟

تَسَاءَلتُ: لو أنَّني فَقَدتُ الذَّاكِرَة، هل سَأتَذَكَّر كيف كُنتُ أكتُب؟ ولا أتحدَّث عن المهاراتِ اللُّغويَّةِ وتَذَكُّري لمَوَاضِعِ الفَواصِلِ والصَّرفِ والنَّحو، ما أقصِدُه هل إنِّي سَأتَذَكَّر كيف أصِيغُ حُرُوفِي؟ كيف كُنتُ أتَأمَّلُ الأَشياء لأَخرُجَ منها بشيءٍ أكتُبُه؟ هل سَأتَذَكَّر شُعلَتي الَّتي تَدفعُنِي للكِتابَة؟

وإن فَقَدتُ الذَّاكِرَة، فبِالتَّأكيد سَأفقِدُ معها ألمِي، سَأنسى لماذا كُنتُ أكتُب من الأَساس، لَن يُوجَدَ في عَقلِي ما أنقشُه على وَرَقٍ كَي أَستَطِيعَ النَّوم، هذِه وِجهَةُ نَظَرِي الأُولَى، أمَّا الثَّانِيَةُ فهي: إنَّني لا أحتاجُ إلى ذَاكِرَةٍ كي أكتُب، لا أحتاجُ عقلًا يَعُجُّ بالذِّكرَيَات، بل إلى قَلبٍ، إن نَسِيَ عَقلِي، فَقَلبِي سَيَتَذَكَّر، وسَيَجعَلُ جَسَدِي يَنتَفِضُ كُلَّمَا مَرَرنَا بشُعُورٍ قد مَرَرنَا به سَابِقًا، أنا لا أحتاجُ إلَّا لِصِدقِي وأحساسي، الكِتابَةُ عَمَلٌ رُوحَانِيٌّ شَاقّ، عَمَلٌ صَادِقٌ لا يَحتاجُ إلى دِرَاسَاتٍ وأبحاث، بَل يَحتاجُ إلى بَعضِ الوَجَع، والوَجَعُ أقوَى مِن أن يَتَأثَّرَ بالنِّسيَان، رُبَّمَا سَأنسَى كَيفَ أبدَأُ نُصُوصِي، وكَيفَ أُنهِيهَا، سَأنسَى إنَّنِي في الغَالِبِ أستَخدِمُ مُصطَلَحَاتٍ دِينِيَّة، أو سَأنسَى مَن أُخَاطِبُهُم في نُصُوصِي، ولَكِن بِالتَّأكيد لَن أنسَى شُعُور مَسكَةِ القَلَمِ، وانسيابِ الحُرُوفِ من بَينِ أصابِعِي.

ماذا لو نَسِيتُ بعضَ الأشياءِ التي كانت في حياتي؟ لو استيقظتُ وأنا لا أذكُر أنّكَ كنتَ أقربَ إليَّ من جفني، فكيفَ ستحاولُ جعلي أتذكّر؟ أستُخبِرُني عن مُشاجرتِنا الأولى وكيفَ هَاجَمتُكَ لأنكَ لم تُحِبَّ فريقي المُفضَّل؟ أم ستُحدّثُني عن مُقابلتِنا الأولى وكيفَ كنتَ تفوقُني طولًا؟ أم ستُخبِرُني عن أوّلِ "أُحبُّكِ" قُلتَها لي؟ كيفَ ستجعلني أُصدّق أنّني أحببتُكَ، وأنّنا ظَلِلنا سويًّا بعد الكثيرِ من التخبّطاتِ ورحيلِ بعضِ الأشخاصِ من حياتِنا؟ الأمرُ مُعقّدٌ بعضَ الشيء، ويجعلُني أتساءل: هل لديكَ البراهينُ الكافيةُ لتجعلَ عقلي يتذكّرك؟

كان كلُّ شيءٍ عاديًّا إلى أن تسرَّب اسمُك من بين كلماتي دون قصد، لا أعرف كيف حدث، لكن فجأة وجدتُني أطلب من أختي أن تُحضِر لي تلك الملابس... نفسُها التي كنتُ أرتديها في ذلك اليوم الذي كنتُ فيه معك، وعِندما تَفَوَّهتُ بِتلك الحُروف، شَعَرتُ أنَّ بَعضَ الجَليد الذي في رأسي يَتَشَقَّق، وعلى وَشك أن يَذوب، تَذَكَّرتُ مُقابلتَنا تِلك، وكم كانت بارِدة، دونَ عِتاباتٍ، ولا نَظَراتٍ، فَقَط كُنتَ تَسيرُ بجانبي كَجُثَّةٍ هامِدة، حاوَلتُ أن أُحَدِّثَكَ عن كُلِّ ما حَدَثَ في حياتي وأنتَ لَستَ هُنا، حَدَّثتُكَ عن اللَّيالي التي قَضَيتُها وَحدي، عن نَوباتِ حُزني المُفاجِئةِ التي كانت تَفتكُ بي، حَدَّثتُكَ عن أنَّني مُتعَبَةٌ، وتَمَنَّيتُ أن أضَعَ رأسي على صَدرِكَ، وأن أشتَكيَ مِنكَ إلَيكَ، وأُخبِرُكَ لماذا جَعَلتَني أنظُرُ إلَيكَ وأنا أعلَمُ أنّها النَّظرةُ الأخيرةُ، أعلَمُ، ومُتَأكِّدةٌ، أنَّني خَطَوتُ لِمُقابلتِكَ تِلك كي أُوَدِّعَكَ لا أكثر، لأنَّني فَشِلتُ في إصلاحِ ما بَينَنا، عاتَبتُكَ كثيرًا، عاتَبتُكَ أشدَّ عِتابٍ، عاتَبتُكَ ولُمتُكَ، وكأنَّ الخَطأَ خَطؤُكَ وحدَكَ، وهو كذلك، أنتَ مَن لَم يَكُن حُبُّه كافيًا لِيَحميَه من أفكارِه، وأنتَ مَن فَضَّلتَ الصَّمتَ على أن تُحَدِّثَني، أنتَ مَن جَعَلَ كُلَّ شيءٍ بينَنا بلا مَعنى، وجَعَلَني أُراقِبُكَ عن بُعدٍ، أفتَخِرُ بكُلِّ خُطواتِكَ؛ عِندما تَغَلَّبتَ على وِسواسِكَ القهري، وعِندما عادَت عَلاقتُكَ بأُمِّكَ، كُنتُ شاهِدَةً على كُلِّ شيءٍ تُنجِزُه، وتَقَبَّلتُ أن أَراكَ تَتَقَدَّمُ دوني مادُمتُ قد مُحِيتُ من خطَطِكَ، الّتي لو كُنتُ أكتُبُ نَصًّا آخَرَ في وَقتٍ آخَر، لَكُنتُ سأكتُبُ "خططنا" ولكِنَّكَ فَضَّلتَ أن تُفَصِّلَ الضَّمائرَ، وتَسيرَ بمُفرَدِكَ، وهذا ما أخبَرتُكَ أنَّهُ سَيَحدُثُ، ولكِنَّكَ لَم تَستَمِع إلَيَّ

وَدَّعتُكَ للمرَّةِ الأخيرة، حَضَنتُكَ للمرَّةِ الأخيرة، ويُمكنُني أن أُجزِمَ أنَّني وَحدي مَن عانَقَ وقتَها، وَحدي مَن قالَ: "وَداعًا" فَضَّلتَ الصَّمتَ في أكثَرِ وَقتٍ كان يَجِبُ عليكَ أن تَتَحَدَّثَ، أن تَعتَذِرَ، وتُخبِرَني أنَّنا سَنُحاوِلُ مُجدَّدًا، وأنَّ ما بَينَنا لا يُمكِنُ هَدمُهُ بكلِّ سُهولةٍ هكذا، ولكنَّكَ لَم تَفعَل

فَهَمَمتُ بالرَّحيل

لَفَتَتني بَعضُ الوُرودِ في طَريقي، وشَعَرتُ أنَّني أُريدُ أن أُواسيَ نَفسي على ما فَقدتُهُ من مَشاعِرَ، وأن أشتَريَهم، أصْرَرتَ على أن تَدفَعَ وأن تُحضِرَها لي، ولكِنَّني لَم أرضَ أن تَضعَ بَصماتِكَ على شيءٍ آخَرَ أُحبُّه، لا أُريدُ شيئًا آخَرَ مِنكَ، فَحَياتي بِالفِعلِ مُكدَّسَةٌ بِكَ وبأشيائِكَ، ومَرضُ التَّعلُّقِ الذي أُعاني منهُ يَمنَعُني أن أتخَلَّصَ منهم، ويَكفي أنَّكَ وَضَعتَ بَصمَتَكَ على أكثَرِ شيءٍ أُحبُّه، وهيَ البَلَدُ الّتي تَلاقَينا فيها، وذلكَ الشَّيءُ الوحيدُ الذي لَن أستَطيعَ أن أُسامِحَكَ عليه.

قرأتُ نصًّا كتبته صديقةٌ لي، كانت تقول إنّها لو كتبتْ عن شيء، فإنّها هكذا تُخلِّد ذكراه، ولن يُمحى أبدًا من ذاكرتها، وإنّها حينما تكتب عن الشيء، هكذا يتوغّل الحزن فيها أكثر، ولا تنساه، لفتني ذلك كثيرًا، وذكّرني بحديثها لي عندما دخلتْ غرفتي ورأت بعض كتاباتي على الحائط، قالتْ لي: "بتحاوطي نفسك بالحزن ليه؟" رددتُ عليها وقتها: إنني لا أُحاوِط نفسي بالحزن، بل أُخرجه من داخلي كي لا يُسمّمني، كي أستطيع السير ورأسي خفيفة، هذا كان منطقي وقتها، نصّها جعلني أُفكّر: هل أنا لم أستطع نسيان ما حدث خلال سنواتي الماضية لأنني كتبتُ كثيرًا، كثيرًا حقًّا عمّا حدث؟ أم أنني تقبّلتُ ما حدث لأنني كتبتُ عنه كثيرًا؟ وشتّان بين النسيان والتقبّل، أنا بالطبع لم أنسَ، ليس لأنني وثّقتُ ما حدث على بعض الصُّفَح، بل لأنّ ما حدث يعني لي كثيرًا، وأنني ربما وثّقتُ ما حدث كي لا أنسى، ذكرياتي أثمن من أن أنساها، أعلم أن أغلبها ذكريات رماديّة، ولكنّها جزءٌ منّي، فكيف أنساها؟

اختلفتُ معها كثيرًا، حدّثتُها عن أهمية ماضينا مهما كان شكله، وأنّ الكتابة وقت الحزن مهمّة، كي لا تنفجري بسبب أنّ قهوتك قد بردت، رُبما نختلف في طُرُق التعبير عن حزننا، وتخطّينا، ما يجعلنا متشابهتين فقط هو الألم، وكلّ واحدةٍ منّا تقول إنها متألّمة بطريقتها الخاصّة

نحن لم نختلف يومًا.

ومَن يَعلَمْ.. رُبَّما يَأتي وَقتٌ لا أستطيعُ أن أُمسِكَ فيهِ قلمًا، وأمقت حُروفي، وأكتُبَ عن أيِّ شيءٍ غيرِ ما أشعُرُ به، وَقتَها سأستسلِمُ للنِّسيانِ، لأنَّ ذاكرتي لَم تَعُدْ تَحتَمِلُ هذا الكَمَّ الهائلَ من الذِّكرياتِ

مُلاحظة: قد أتى ذلك اليوم

عزيزي، أشعرُ بأنَّ أناملي مُجمَّدةٌ ولا أقوَى على تحريكِها، في الحقيقةِ ليست أناملي فقط، بل وعقلي أيضًا، أشعرُ بجُمودٍ فِكريٍّ، جميعُ الحروفِ تَفرُّ منِّي، ولم أكتبْ لكَ منذُ مُدَّة، قَلِقْتَ علَيَّ صحيح؟ أنتَ لم تَرَني في هذه الحالةِ المُزريةِ منذُ مُدَّةٍ طويلة، وكم يصعبُ عليَّ أن نعودَ إلى تلك الفترةِ مجدّدًا، ولكن لا بأس، أنتَ هنا معي، دعني أُحدّثكَ بِصدقٍ، بعيدًا عن أسلوبي في الكتابةِ، البعيدِ كلَّ البُعدِ عن البلاغةِ، وعن كوني الكاتبةَ المشهورةَ التي اعتدتَ أن تقرأ لها، أنا الآن لا أعرِفُني، ولا أعلمُ كيف كنتُ أَقُصُّ عليكَ حكاياتي، ولكني سأُحاول

هناك أصواتٌ كثيرةٌ تجولُ في عقلي، أحدُهم يَشُدُّني في ناحيةٍ، والآخرُ يَشُدُّني في الناحيةِ الأُخرى، لا أعلمُ مَن منهم على صوابٍ، أو في أيِّ اتّجاهٍ يجب أن أسير

مؤخَّرًا أعدتُ أن أضعَ كلَّ شيءٍ في حياتي على وضعِ الانتظار، أنتظرُ أن أنتهيَ من امتحاناتي كي أستطيعَ أن أحلَّ مشاكلي، وأتحدّثَ مع صديقي الذي أهمَلتُهُ كثيرًا في الآونةِ الأخيرة،

أنتظرُ أن أُنظّفَ غُرفتي كي أجلِسَ وأكتُبَ لكَ على مكتبي كما اعتدتُ، أنتظرُ أن يَهدأ كلُّ شيءٍ حولي لأستطيعَ أن أحترقَ دون أن أُسبّبَ إزعاجًا

وربما تأخُّري في الكتابةِ إليكَ هو لأنني أَنتظرُ أن يأتيَ إلهامي، وتَهدأ الضوضاءُ من حولي، انتظرتُ كثيرًا، ولكن لم يَهدأ أيُّ شيء، لذلك اندفعتُ نحوَ القلم، أُرغِمُ يدي على انتزاعِ تلك الأصواتِ التي بداخلي، وتحويلِها إلى نَصٍّ لا أَدري كيف سيكون، لا أدري إن كنتَ ستُصفّقُ لي بعدَه، أو ستخرجُ من

هذه المجموعةِ وتقول: "يا لَلمُراهَقة! لقد ضيَّعتُ منٍ وقتي الثمينِ في قراءةِ نصٍّ سخيفٍ كهذا" ولكن لا يهمّ، حقًّا، أنتَ تعلمُ أنني بحاجةٍ إلى مُحادثتِكَ، أنا دومًا أَستمعُ لك، فاستمعْ لي أنتَ لمرةٍ واحدة، وقلْ لي لماذا يحدثُ هذا؟ لماذا أصبَحْنا بهذا الجمودِ تجاهَ كلِّ ما يحدثُ لنا؟

شيءٌ ما حولي يجعلني في حالةِ تأهُّبٍ متواصِلٍ لخروجِ ثورةٍ فجائيَّة، ثورةٍ تُخرسُ كلَّ مَن حولي، وتجعلُ صوتي هو سيِّدَ المكان، تجعلُهم ينظرون إليَّ في ذهولٍ، وعلى بعضِهم ملامحُ غضبٍ، والآخرِ خوفٌ، شيءٌ ما في هذه الوجوهِ يدفعني لأَسْكُبَ أطنانًا من الغضبِ عليهم، لسببٍ يكادُ لا يُذكَر، حتى أنا كنتُ في قمَّةِ الحرج حين خَمَدَتْ هذه الثورة، لا أدري ما دَهاني، ولماذا خرجتْ هذه الروحُ الثائرةُ الآن بالتحديد، فأنا حاولتُ إخفاءَها بكفاءةٍ في الفترةِ الأخيرة، شربتُ جرعاتٍ كبيرةً من النيكوتينِ كي تُخرسَني، كي تَبُثَّ فيَّ مُخدِّرًا لتمرَّ أيَّامي تلك بأقلِّ ضررٍ، ولكنَّني فشلتُ، والآن يجب أن أتعاملَ برُشدٍ مع نتائجِ أفعالي، لُمتُ نفسي كثيرًا؛ لأنَّها لم تتحمَّلِ القليلَ بعد، ولأنَّها وضعتني في أزمةٍ جديدةٍ يجب التعاملُ معها، وأنا مَلِلتُ التعاملَ، ومَلِلتُ الأزماتِ.

⋆｡˚☆ ☆˚｡

⋆｡˚☆

أشكُرُكَ يا عَزيزي عَلى دَفعي عُنوَةً لِلكتابَةِ، أشكُرُكَ عَلى تَوْجِيهِ أصَابِعِكَ نَحوَ كُلِّ مَا كُنْتُ أُخفِيهِ فِي رُكنٍ ما فِي عَقلِي، رُبَّمَا لَن أستَطِيعَ التَّوَقُّفَ عَن الكتَابَة الآن، أو فِي قَولٍ آخَرَ لَن أستَطيعَ النَّوم.

هناك شيءٌ يدورُ في بالي منذُ يومين وأُحاول أن أجدَ له وصفًا يا عزيزي، ولكنّني لا أُفلح، شيءٌ في عينيّ، دعني أُسمِّيه بريقًا، هذا البريقُ يجعل لونَ عينيّ البُنّيَّ، يمتزج بشُعيراتٍ خضراءَ في أوقاتٍ ما، تلك الشُعيراتُ سمّاها أحدُهم لي بـ"الحياة" أخبرني أنّ الحياةَ تنطقُ من عينيّ، ومن كلِّ خليةٍ في جسدي،

وكأنّ لديَّ إقبالًا مريبًا بعضَ الشيءِ على الحياة، لا تنظُر إليَّ هكذا، أُقسِمُ لك أنّ هذا الوصفَ قد حصلتُ عليه أنا، أنا التي تكتبُ لكَ نصوصًا تتمنّى أن تقطعَ شراييناك بعد أن تقرأها، ولكنْ هذا ليس موضوعي الآن، ما أُريدُ إخبارَك به، أنّه حدثَ شيءٌ غريب، تلك الشُعيراتُ اختفت، وشعرتُ أنّني كلّما نظرتُ إلى شيءٍ ما، ذبُلَ ومات، طاقتُي الجسديّةُ انخفضتْ فجأةً، ولم أعُد أنشرُ النكاتِ هنا وهناك، وقبل أن يسألني أحدٌ: لماذا حالي مُزرٍ هكذا؟هربتُ، لم أُحدِّد وجهتي، ولكنّي أردتُ بشدّةٍ الاختفاء، لم أعتدْ أن يراني أحدٌ وأنا خائرةُ القوى، فاقدةٌ لمعنى الحياةِ هكذا، في وقتٍ كنتُ أنا فيه المعنى، تلك من ضمنِ المرّاتِ القليلةِ التي شعرتُ فيها بضآلةِ حجمي أمامَ ما أُعانيه، وحقًّا أتساءل: أين ذهبتْ شرارتي؟ وماذا حلّ بعينيّ؟.

أكرَهُ ذلكَ الشُّعورَ الذي يَتَسَلَّلُ إلى جَسَدي في ذلكَ الشَّهرِ بالتَّحديد، كُلُّ الآلم الذي في خَلايا جَسَدي يوقظ فجأة، وكلُّ ذِكرى راكدةٍ تَطْفو مُجَدَّدًا،
وكأنَّ ذلكَ الشَّهرَ يأتي لِيَجعلَ ثَورتي الخامدةَ تَنفَجِرُ في كُلِّ ما هو حَولي، وأوَّلُهُم أنا، حَتّى رَغَباتي الدَّفينةُ تَنشَطُ، كُلُّ مُحاوَلاتي لِنِسيانِ تِلكَ الفَترةِ تَؤولُ إلى الفَشَل،
أنا ضَعيفٌ أمامَ ذِكرياتِ جَسَدي، ونُدوبِ قَلبي... ويَدَيَّ.

☆°。 。°☆

★。°☆

الغضبُ يدفعني للكتابة بنهم، ولكن لا أدري ما مصابُ يدي هذه المرة، فهي لا تعمل، رغم تعطُّشِ عقلي لإخراج كل هذه الأصوات على الورق، كي لا تختنق فصوصُ مخِّي، ولكني حقًّا لا أدري
أخبرتُ من أُحبّ أنني كي أكتب، أحتاج إلى صاعقة، صاعقة تجعل الحروف تُنسَج عنوةً عني، ولكن الصاعقةَ الأخيرةَ أخرستني، وجعلتني أفقد حروفي، رُبما لأنهم يذكرونني بك، وأنا لا أريد تذكُّرك، هذا ما قاومتُ عقلي على الإجهار به، ولكنني أخيرًا قلتُها
أعلم أنك لم تعتد غيبتي الطويلة تلك، وفي هذا الشهر بالتحديد، لأنك تعلم أنه به الكثير من القصص التي سأخبرك بها، ولكن حكيَ القصصِ يحتاج إلى شجاعة وقدرةٍ على الإفصاح، وأنا لا أملك الاثنين.

أخبرني أنّ كتاباتي ما هي إلّا إفلاسٌ فكريّ، وعواطفُ مُغلّفةٌ بحروفٍ ركيكة، دافعتُ عن نفسي وعن كتاباتي بكلّ ما أُوتيتُ **من** قوّة، ولكنّه جعل شعورَ الشكِّ في نفسي - الذي أُعاني منه في الأصل - يتضخّمُ حجمُه داخلَ روحي

ظلَّ صدى كلماتِه يحومُ حولي: "اكتبي عن أيِّ شيءٍ آخر غيرِ نفسِك."

لا أدري ما الجريمةُ التي ارتكبتُها في حقّه، لمجرّد أنّني - لأوّلِ مرّةٍ في حياتي - قرّرتُ عدمَ الخوف، وقرّرتُ الكتابةَ وتلطيخَ الورقِ بما يحدثُ داخلي، لأنّه فاق قدرتي على حملِه بمفردي عندما تَرَكني، أخبرني ساخرًا: "روحي اكتبي حاجة ولوميني فيها بدل ما تعيّطيلي أنا" لم أُدرِكْ إلّا مؤخرًا أنّه كان يخافُ ويرتعدُ من كلماتي وتعبيري عن مشاعري وأحاسيسي، كان يخافُ أن تطولَه هذه الكلماتُ بالأذى، كان متخوّفًا من عباراتي التي كانت ستُصوِّبُه بطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة، كان خائفًا من كلماتي، حتّى لا تكشفَ زيفَ ما بيننا، كان يعلمُ أنّني بهذه الكلماتِ أستطيعُ أن أتنفّس، وأكونَ أكثرَ ثقةً، فتعمَّد أن يسرقَها منّي، كان يعلمُ أنّني أجدُ ذاتي فيما أكتبه، ذاتي التي أخذتْ في التلاشي شيئًا فشيئًا بسببه، كنتُ أظنُّ أنّني أقوى من ذلك، وأنّني سأستطيعُ المقاومة، ولكنّني ببساطةٍ توقّفتُ عن الكتابة، وتاهتْ منّي الكلمات، ولكن، بعد الكثير من الوقت، أدركتُ أنّني لن أستطيعَ التوقّف عن الكتابة، حتّى لو اضطررتُ للكتابة عنك مرّاتٍ كثيرة، حتّى لو كانت حروفي مجرّد إفلاسٍ فكريّ، لن أستطيع، حتّى لو حاولتُ، وإن استطعتُ يومًا ما، فبالتأكيد سيكون سببُ انقطاعي عن الكتابة ذا قيمة عنك ياعزيزي.

عزيزي، حدَّثتَني أمس عن طَبعي الذي أطلقتَ عليه "أنانيَّة" وأنَّه على الرغم من أنانيَّتي في تَعامُلي مع أشيائي، إلَّا أنَّني أفقِدُهم، أو أدَعُ غيري يَمتلكُهم، غريب صح؟ ولكنَّك استخدمتَ العباراتِ الخاطئة، أنا لا أفقِدُ شيئًا، بل أُفلتُهم، أُلقي نظرةً أخيرةً على أشيائي لأُدرِكَ أنَّهم لم يعودوا يُشبِهونَني، أحتضِنُهم بشدَّة، ثم أُفلتُهم، ولا بأسَ بالقليلِ من الدموعِ، والكثيرِ من خُطَبِ الوداع، ولكنَّني لا أتَشبَّثُ بشيءٍ لم يَعُد يُشبِهُ روحي، في الماضي، ارتكبتُ خطأً شنيعًا في حقِّ نفسي، وتشبَّثتُ بشخصٍ ما، على أملِ أن يعودَ لتلك الهالةِ التي كانت تُميِّزُه؛ رِقَّةُ مشاعِره، والسبابُ والشتائمُ التي لم تَزُرْ فَمَهُ قَط، ملابسُه المُلوَّنة، وحُبُّه للقطط، فأجدُ أنَّه كلَّما تشبَّثتُ به، زادتْ هذه الهالةُ اختفاءً، واختفى معه بريقُ عيني، ولكن، لا ألُومُه يا عزيزي، أنا أيضًا تغيَّرتُ كثيرًا منذُ مُقابلتِنا الأخيرة.

قُلتَ لي إنّني إذا لم أجدْ نفسي بنفسي، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يجدَها لي، وكنتَ مُحقًّا، ولكنّك لم تُخبرني أنّ رِحلةَ البحثِ عن نفسي ستكونُ مُخيفة، ستجعلُني أتخبّطُ بين الكثيرِ من الأسئلةِ، وأوّلُهُم: هل هذه حَقيقتي التي أُصيغُها لك في حروفٍ، أم ذاك النّسقُ الذي اعتدتُ أن أكتبَ به؟ هل أشعُرُ بما أكتبه، أم أخطو بيدي دون أن أشعُر؟ ولكن ربّما إنّني فقدتُ الإحساسَ منذُ وقتٍ طويل، الشّيءُ الوحيدُ الذي أشعُرُ به كلّ مرّةٍ كأوّلِ مرّةٍ هو لَومي لنفسي، ذلك الشّعورُ القاسي الذي يَنهشُ أطرافي، ويجعلُ كلَّ شيءٍ حاولتُ أن أتناساهُ يعودُ مُجدّدًا، كلُّ شيءٍ خسرتُهُ، اشتقتُ له فجأة، أو في قولٍ آخر: اشتقتُ لشعوري وقتَها، أعلمُ أنّك ضِقتَ ذَرعًا بي، ولم تَعُدْ تُطيقُ شَكَوايَ وكلماتي الحزينة، ولكنّني كلّما حاولتُ تدوينَ مشاعري، كما نصحَني طبيبي، لا أتوقّفُ عن الشّكوى والتّذمّر، في تلكَ اللّحظة، أتحوّلُ إلى الطّفلةِ المُتطلّبةِ التي تُدبْدِبُ قدمَها في الأرضِ، وهي تبكي على ضَياعِ دُبدوبِها الصّغير، كبرتُ، وعَلِمَتْ أنَّ هناكَ أشياءَ أكثرَ قِيمةً ستَضيع، ولكنّني إلى هذهِ اللّحظة، حزينةٌ على دُبدوبي الصّغير، رُغمَ حالتِه الرّثّة، إلّا أنّني كنتُ أُحبّهُ جدًّا، فمَبالَك أنتَ يا عزيزي! كيفَ لا أُقيمُ الحروبَ على رَحيلِك؟ كيفَ يجبُ أن أتحلّى بالهدوء، وأنا أراكَ تُفلِتُ يدي بكلّ سُهولةٍ بعد كلِّ ما فعلتُهُ لأجلِك؟ وذلك ثانيَ شَيءٍ أُحاولُ أن أكونَ فيهِ حقيقيّةً مع نفسي: هل أنا حزينةٌ لفِراقِك، أم لمَجهودي في جعلكَ تَبقى؟ ولكِنّي لا ألومُك، قرارُكَ بالابتعادِ عنّي كان صائبًا، على الرّغمِ من مرارتِهِ التي أدّتْ بي إلى هذا المكان، وإلى كتابةِ هذهِ الرّسائل، ولكن مَن يستطيعُ

أن يُجاورَ شخصًا انطفأ؟ أو في قولٍ آخر: لم يستطِعْ أن يَشتعلَ مُجدّدًا؟

أعلمُ أنّ كلًّا منّا يَمرُّ بفتراتٍ عصيبةٍ، ولكن أن تُحبّها وتُقرّر ألّا تتخلّصَ منها، كأنها تَملّكتْ منك تمامًا؛ تُحرّكُك أنتَ وأفكارُك، وأنا كالغبيّةِ مُستسلمة، حتّى سَقَطتْ أشيائي شيئًا فشيئًا، ولم أستطعِ التّشبّثَ بكَ أو بغيرِك، وتركتُ نفسي للتيّارِ يُطيحُ بي هنا وهناك، ويقذفُ بي بعيدًا، وإلى الآن، لم أرسُ يا عزيزي، فلا ألومُك.

أيُّهما أقسى يا عزيزي؟ أن يتركَكَ شخصٌ تُحبُّهُ بدونِ سببٍ واضحٍ، أم بسببٍ واضحٍ؟ لا تتسرَّع، فكِّر قليلًا، ماذا تقول؟ تُخبرني أَنَّهُ من الأَفضلِ أَن يتركَكَ بسببٍ واضحٍ، مُضحكٌ أنتَ يا عزيزي! تقولُ ذلكَ لأنَّكَ تعتقدُ أَنَّ معرفتَكَ بما حدثَ ستُساعدكَ على تجنُّبِهِ في علاقاتكَ القادمة، هذا لو كُنتَ تَمتَلِكُ الجُرأةَ مِنَ الأَسَاسِ لِتَبدَأَ مِن جدِيد، أنتَ سطحيٌّ حقًّا، ألم تُفكِّر في ما وراءَ ذلك؟ لم تُفكِّر في محاولاتِكَ لإثباتِ عكسِ ما قالَهُ لكَ ذلكَ الشخصُ قبل أن يرحلَ؟ من أسبابٍ واتهاماتٍ، لم تُفكِّر في الأشباحِ التي ستَحتلُّ عقلَكَ وتُهاجمكَ في الليل، تُخبرُكَ أَنَّكَ غيرُ كُفءٍ، وكلُّ شيءٍ تلمسُهُ يداكَ يَفسُدُ، وكُلُّ من تُحبُّهم يرحلون، وأَنَّهُ لا فائدةَ، وأنكَ تفشلُ كُلَّما حاولتَ، ألم تُفكِّر في لومِكَ لنفسِكَ، حديثِكَ لها، وصِداماتِكَ معها؟ "لو عادَ الزمنُ، أُقسِمُ أَنَّني لن أفعَلَ ذلك" تُوافِقني الرأيَ يا عزيزي؟ ومن خبرتي أُخبرُكَ أن تُترَكَ بلا سببٍ واضح، ذلك شيءٌ قاسٍ جدًّا أيضًا، ستظلُّ طيلةَ عُمرِكَ تسألُ نفسَكَ: "ماذا فعلتُ كي أستحقَّ ذلك؟ وكيفَ مَن أحببتُهُ يهدمُ كلَّ ما بينَنا هكذا ويُقرِّرُ الرحيل؟" يأخذُ بعضَهُ، ويُغلِقُ البابَ، ويتركُ لي الذكرياتِ، ووجعَ القلوبِ، وظلامَ الدروبِ، وثقتي المهزوزةَ لكلِّ ما هو قادم

الأمرانِ قاسيانِ بما يكفي ليجعلا شخصًا سيئًا مثلي لا يُجيدُ التعبيرَ عن مشاعره، لا يستطيعُ البوحَ ولا الشكوى، يكتبُ ويكتبُ، يبصمُ على الورقِ بخيباتِهِ، يكتبُ بكلِّ ما فيهِ من قوةٍ كي يَطبعَ ذلكَ السوادُ القابعُ بداخله على هيئةِ حبرٍ على ورقٍ، الأمرانِ يا عزيزي يؤلمانِ، يُجعلانِكَ تتخبَّطُ بينَ ألفِ سؤالٍ بلا

إجابةٍ، ويجعلا الأرقَ ضيفًا لليالِيكَ؛ يحرِمُكَ من النومِ الذي ينعمُ به المليارات الآن، الأَمرانِ يأكلانِ الروحَ، الأَمرانِ ينهشانِ العقل.

منذ أن أحببتُكَ وأنا أُفكِّرُ في تلك اللحظةِ التي ستتركني فيها، وكيف ستنقضُ وعودكَ، تفنَّنتُ في صُنع سيناريوهاتٍ إلَّا الذي حدثَ، تخيَّلتُ كيف سيمرُّ ذلك اليوم، وهل سأكونُ قادرةً على التنفُّسِ من كثرةِ البُكاءِ؟ توقَّعتُ أن أُكسِّرَ زجاجَ غرفتي من كثرةِ غيظي، توقَّعتُ أن أُمزِّقَ صورَكَ التي على حائطي، توقَّعتُ أن يتوقَّفَ قلبي من كثرةِ القهوةِ التي سأحتسيها، ولكنَّ المُذهلَ يا صديقي أنني لم أُحرِّك ساكنًا، لم أذرف دمعةً واحدةً، فقط تجمَّدتُ، أشعرُ بالبردِ يحتلُّني رغمَ أنَّ درجةَ حرارتي عاليةٌ، أشعرُ بعدمِ قدرتي على الكتابةِ حتى، تهربُ مني حروفي؛ خِشيةً من أن تكتبَ عن رَحيلكَ، حدَّثتني صديقتي عن موتِ أُخت الأديبِ الذي نُحبُّ أن نقرأ له، وكيف كان يقولُ إنَّه لا يعترفُ بموتِها، لأنَّه لو اعترفَ؛ لَجُنَّ، ولَن يجد ما يجعله يستيقظُ كلَّ صباحٍ، بدونِ وعيٍ وجدتُ عقلي يُفعِّلُ دفاعيَّةَ الإنكارِ؛ لأنَّني لن أستطيعَ أن أُواجهَ عالمي الخالي منك، كيفَ سأمنعُ ثغري من ذكرِ اسمكَ عندما تُذكَرُ خُططُنا المُستقبليَّة؟ كيفَ سأمنعُ صديقي الذي كنتَ تكرهه من الحديثِ عنكَ؟ كيفَ لن أبحثَ عنكَ عندما تخطو قدمي بلدكَ؟ كيفَ سأمنعُ عيني من أن تراكَ في جميعِ الناسِ حولي؟ كيفَ أُبعدُ رائحتكَ، صورتكَ، صوتكَ من أن يتخللوا رُغمًا عني لذاكرتي؟ كيفَ سأمنعُ أمي من الحديثِ عنكَ وعن جمالِ غمازاتكَ وعينيكَ؟من وقتها وأنا لا أعيشُ على الخبزِ والماء، إنما أعيشُ على آلياتِ عقلي الدفاعيَّة؛ القليلُ من التبرير، على القليلُ من الكبتِ، والكثيرُ الكثيرُ من الإنكار، أتعلمُ ما هو الإنكار؟ الإنكارُ هو المزيدُ من الأكاذيبِ التي أُغذِّي بها عقلي، الإنكارُ هو الضحكاتُ العاليةُ

للتغطيةِ على صوتِ أفكاري، هو سنواتُ عمري التي أُصرُّ أنَّها لم تضِعْ هباءً، وإنما لكلِّ شيءٍ يحدثُ سببٌ، الإنكارُ هو الوعودُ المنكوثةُ، والعهودُ المفسوخةُ، والأحلامُ المُحطَّمةُ، وأشلاءُ قلبكَ المُمزَّقة، الإنكارُ هو عدمُ حذفي لصورنا، مُتمنيةً أن نعود، الإنكارُ هو رفضي للاستيقاظِ كي لا أرى أنَّني في كابوسٍ مُرعبٍ، الإنكارُ هو خوفي من مواجهةِ نفسي، كي لا اصطدمَ بها وألومَها على كلِّ تصرُّفٍ غبيٍّ فعلتُه، الإنكارُ هو هروبي من نفسي ومن الأيامِ، الإنكارُ هو الكثيرُ من الأسئلةِ التي تنهشُ عقلي بلا رحمةٍ، الإنكارُ هو أحيانًا رفضُ النظرِ في الساعةِ أو تاريخِ اليومِ؛ رُعبًا من إدراكِ أنَّ الأيامَ تتجهُ للأمامِ بدونِكَ، الإنكارُ هو تمسُّكِ بذكرياتِنا السعيدةِ، مع حذفِ الجزءِ الذي تركتني فيه، عقلي يؤلمني، يا عزيزي، كلُّ شيءٍ هنا يتهشَّمُ فوقَ قلبي.

عزيزي فُلان، السَّلامُ عليكَ أينما كُنت، ثَمَّةَ أسئلةٌ تدورُ في خاطري تُصيبُني بالأرقِ وتُحرِقُ عقلي، لذا دعني أسألك، لن أُطيلَ عليك، لأني أعلم كم أنا مُزعجة

أُريدُ أن أشتكيَ مِنكَ إليكَ يا عزيزي، يقولونَ إنَّكَ رحلت، هل رحلتَ حقًّا؟ لا أتقبَّلُ تلك الفكرة، أنا لستُ خياليَّةً، ولستُ مُتوهِّمَةً، هذه المرَّةَ أنا في كاملِ قواي العقليَّة، لا تضحك! مُقدِّرةٌ أنَّها المرَّةُ الأولى التي تراني فيها ناضجةً، ولكنَّ هذا ذنبُكَ أنتَ، أنتَ مَن جعلتني أُصعق، ويشيبُ شَعري إثرَ ذلك وأنا ما زلتُ في العشرينات، أنتَ تُفَتِّشُ عن نُدُوبي القديمةِ لا لِتُعالِجَها أو لِتَرسُمَ حولَها النُّجومَ كما أتَغَنَّى في نصوصي، بل لِتُذَكِّرَني بذلك الألمِ مرَّةً أُخرى، تفنَّنْتَ حقًّا في تذكيري، ولكنَّني لم أنسَ مِنَ الأساس

أنتَ وَغدٌ حقًّا يا عزيزي، كيف ترحلُ وتتركني؟ عُدْ، خُذْ أشياءَكَ إذنْ؛ نَظَّارَتَكَ، وتلك القِلادَةَ التي أعطَيتَني إيَّاها، وصُوَرَ فريقي المُفَضَّلِ، الذي أصبحتُ أمقُتُهُم لأنَّهم يُذَكِّرُونَني بكَ، ولا تنسَ أن تأخذَ صُوَرَكَ المُعَلَّقَةَ على الحائط، وتلك الرَّسْمَةَ التي رَسَمْتَها لي، وأخبرتَني أنَّني أُشْبِهُ الشَّمْسَ، لذلك تَجِدُ إلهامَكَ دائمًا كلَّما اشتَقْتَ لي، كيف حالُ الشَّمسِ وأنا لستُ هنا؟ هل ما زالت تُذَكِّرُكَ بي؟ هل يَسيرُ يومُكَ على ما يُرام؟ يُؤسِفُني القَوْلُ، أنا لا، الشَّمسُ تشرقُ نعم، والظَّلامُ يَحِلُّ كعادَتِهِ قاسٍ وعنيف، والأرضُ تَدُور، وكلُّ شيءٍ يَسيرُ عَدَا حياتي أنا، قد يَصِفُني أحدُهم بالمبالغة، وأنَّني "بَنات آخر زَمَن" كما يقولون، أُقسِمُ أنَّهم لا يَفهَمُونَ معنى أن تَخسَرَ كلَّ شيءٍ، لِتَعودَ إلى نُقطَةِ الصِّفرِ مرَّةً أُخرى

اللَّعنَةُ! أنا لم أشعُر بالعَجزِ في حياتي قَطُّ إلَّا عندما أحببتُكَ، تُداهمُني التَّجاعيدُ، والأمراضُ، والمَلَلُ، والذِّكرَياتُ، كلُّ شيءٍ يُذَكِّرُني بكَ، مُلئ قلبي بالشَّيخُوخَةِ قبلَ الأوان، نحنُ لا نَكبَرُ بالزَّمَن، نحنُ نَشِيخُ بالفِراق، وكان حُبِّي يَحمِينِي من كلِّ خُبثٍ، يَحمِينِي من أفكاري الشَّيطانيَّة، كنتُ أحمِلُ مَلامِحَ الجَدَّةِ، وقَلبَ ورُوحَ الحَفِيدَةِ، كنتُ مُزْدَهِرَةً بريئَةً لأنَّكَ كنتَ تَراني هكذا، كنتَ جَمِيلَتَكَ حتَّى آمَنتُ أنَّني أجمَلُ نِساءِ العالَم، والآنَ أُصِيبَتْ مَلامِحي بالتَّعاسَةِ والعَجزِ، حتَّى ابتِسامَتي تَبَدَّدَت، لا أحدَ يُرافِقُني الطُّرُقَ، لا أحدَ يَستَمِعُ معي إلى "مَشروع ليلى" لا أحدَ يَحتَسِي معي القَهوَةَ، أو يُوَبِّخُني لإسرافي بها، لا أحدَ يُشارِكُني الحياةَ

أنا أُحِبُّكَ ولا أستطيعُ أن أقسُو عليكَ، إن كانت مُصْطَلَحاتي قاسيةً فسامِحني، ذلك مِن وَجَعي عليكَ، تَعلَمُ؟ إنَّني ما زِلتُ تلكَ الطِّفلَةَ التي عَلَّمْتَها، وإن رَفَعتُ عَيني عن وَرَقِي ولم أجِدكَ، أُقْسِمُ إنَّني سَأبكِي طِيلَةَ اليوم، ما يَمنَعُني هو تواجُدُ أُمِّي أمامي، ونَظَراتُها التي تَخترِقُ رُوحي، تُفَتِّشُ عن سببِ انطِفائِي، عن سببِ هُدُوئِي وعَدَمِ مُشاجَرَتِي معهم اليوم آهٍ يا أُمِّي، سُلِبَتْ طاقَتِي، ليسَ معي طاقَةٌ تُسْعِفُنِي في تِلْكَ الأيَّامِ، ولا حتَّى لِلكِتابَةِ، كلُّ شيءٍ يَستَدعِي طاقَةً ليست بي.

مرحبًا عزيزي القارئ، لم نتحدَّث منذ مدة، هل الأمور تسير بشكلٍ جيدٍ الآن؟ أم لا زِلتَ لا تعلم وجهتك؟ هل لا زِلتَ تُطارد أحلامك، أم ألَمَّتكَ قدمُكَ من الركض؟ هل من كنتَ تُحدِّثني عنه ما زال في حياتك، أم أنكَ الآن تنظر إلى صورِهِ بخيبةِ أمل؟ أنتَ لا تقوى على إخبارِ الصورِ بما حدث، صحيح؟ ولكنك مُخطئٌ أيضًا يا عزيزي، لا تُلقِ أخطاءَك على الأشخاصِ المُحيطين بك، لأنَّ -وللأسف- حظهم العاثرَ قادهم إلى طريقك، طمئِنِّي على يدِكَ، هل ما زالت تُسقط الأشياءَ الثمينة يا أحمق؟ معذرةً، لا أقصد إهانتك، ولكني أُشفق عليك، أعلم كيف تُفكِّر الآن، وأنَّ كلَّ الأشياءِ تخرج عن سيطرتِك، وذلك يُغضبُكَ كثيرًا، أعلم أنك تَمقُتُ نقدَهم الدائم لك، وكأنك خُلِقتَ بشكلٍ خاطئٍ لا يُناسبهم، فيجب عليك أن تُعيد تشكيلَ نفسِكَ لتُرضِيهم، لا تحزن، أنا أفهمُك، أنا أيضًا أكرَهُهم عندما يفعلون ذلك، حدَّثتُهم مرارًا وتكرارًا كي يقبلوني، وهم لا يُصغون، أخبرني، أنتَ لا زِلتَ خائفًا؟ لا زِلتَ لا تستطيع السيطرة على مخاوفك؟ الخوفُ من فتور إحساسِك تجاه من تُحب، الخوفُ من أن يمسَّ مكانَ راحتِكَ سوء، خوفُكَ من أن تتغلَّبَ عليك أفكارُكَ وتخرُجَ عَنوَةً عنك، وترى كم أنتَ بشع يا عزيزي، أفهمك، أفهمك... أنت خائفٌ من التغييرِ والتغيُّر، خائفٌ من أن تتوهَ في أماكنَ حفظتَها عن ظهرِ قلب، خائفٌ أن تتقبَّلَ الأذى لأنك فقط تُحبُّه، خائفٌ أن ينتهيَ بك المطافُ مثلَ الذين تعرفُ مصيرَهم، أنتَ خائفٌ من اختيارِ طريقٍ جديدٍ لتسيرَ به، خائفٌ من أنكَ لن تستطيعَ التحرُّرَ منهم أبدًا، خائفٌ أن تُهاجَمَ في أيِّ لحظة، أشمُّ رائحةَ خوفِكَ من مكاني هذا، إنَّها قويةٌ ونفَّاذةٌ

وتَجعلُني أنفرُ منك، سامحني، حتى أحلامُكَ لم ترحمكَ يا عزيزي، ما ظننتَ أنكَ تخطَّيتَه يُجسِّدُه عقلُكَ لكَ بأبشعِ المناظر، كي لا تهربَ مجدَّدًا يا أحمق، أنتَ حتى خائفٌ من أن ترى حجمَ الضررِ الحقيقي، لأنك -وبكلِّ بساطة- في وقتٍ لا يسمحُ لكَ بالانهيار، أنتَ خائفٌ أن تظلَّ هكذا، لا تشعرُ بشيء، لا شيء يُحزنُكَ، لا شيء يُسعدُكَ، أنتَ في المنتصفِ الرماديِّ لكلِّ شيء، أنتَ خائفٌ من التجربة، خائفٌ من عدمِ التجربة، خائفٌ أن تُصبحَ ما ظللتَ طوالَ حياتِكَ تُجاهِدُ ألا تُصبحَه، أنتَ خائفٌ أن تظلَّ في مكانٍ لا يُشبِهُك بحجةِ الحب، أنتَ خائفٌ من الحب، وخائفٌ من ألَّا تُحَبَّ، آهٍ يا عزيزي، يكفي! دعني أُربِّتُ على قلبِكَ وأشملُكَ في دعائي، عسى أن يكونَ كلُّ شيءٍ بخير، دعني أنصحُكَ بصفتي طبيبتَكَ النفسيةَ وكاتبتَكَ المفضَّلة، وصديقتَكَ الوفيَّة، ابتعد عن مُسبِّبات الأرق؛ من القهوةِ المُرَّةِ، والذكرياتِ التي جمعتكم، والأغاني التي كانت بينكم، والطُّرُق، وحدثني كلما ساء الأمر، سأكون هنا.

عزيزي، لماذا لم تَعُدْ تُرسل لي؟ ألمْ تشتَقْ إليَّ؟ كتاباتي العظيمة وحروفي الرائعة، ألمْ تُرِق قلبَك؟ ألمْ ينتابكَ الفضولُ لترى إن كنتُ أتعَدَّى على حُرمَتِكَ وأذكُرُكَ في نُصوصي أم لا؟ يا عزيزي، دعني أسألكَ سؤالًا واحدًا، لماذا لم تُحاوِل مُجددًا من أجلِي؟ أخبرتني أنك تُحبني وتُريدني، إذنْ ماذا؟ لماذا لم تتحمل مَشَقَّةَ الطريقِ لأجلِ أن تَنَالَ قلبي؟ دَعكَ من جَفَائِي وحديثي الدائمِ عن أنني أمقُتُ الرجال، كان بإمكانِكَ أن تكونَ غيرَ هؤلاءِ الرجالِ الذين لا أُحِبُّهم، هؤلاءِ المُصْطَنَعِينَ للرجولة، وخشونةِ الصوت، المُتَوَارِينَ خلفَ قناعِ العِفَّة، أنتَ لم تَنحَصِر في هذه الزاوية، كنتُ أراكَ مختلفًا وتُشبهني، ولكنه التوقيت يا عزيزي، التوقيت! رُبَّما لو أتيتَ في وقتٍ غيرِ الوقتِ؛ لَرُبَّما أحببتُكَ وفَتحتُ لكَ قلبي على مِصرَاعَيهِ يا عزيزي، أنتَ رجل، والرجلُ يُحَاوِلُ ويُحَاوِلُ حتى يَنقَطِعَ نَفَسُه، لا يَتَخَلَّى عن شيءٍ أرادَه، ولا يَتَرَاجَع، ولا يُخبِرُهُ أحدٌ بما يجبُ عليهِ فِعلُه، لذلك، يا رجل، راسِلنِي، إنني بدأتُ أفقِدُ صوابي، جُدْ بالرسائل، إن عقلي يَحتَرِقُ، وقلبي أصبحَ تَالِفًا، لا يَفهَمُ لماذا يُرِيدُكَ، وعلى النَّقِيضِ يَنفُرُ مِنكَ هَارِبًا، ولكنَّكَ مُجبَرٌ أن تُرسِلَ لي، فأنتَ الرجل، لذا تَحَمَّل هِبَةَ رَبِّكَ بإعطائِكَ رُجُولَتَكَ، وأرسِل لي، أرسِل لي، لأنَّ أُمِّي لا تَكُفُّ عن تَبكِيتي وتَوبِيخِي، إنَّها تَسألُنِي: لماذا انقطعَ وِصالُكَ؟ هي تلُومُنِي، وجميعُ أشيائي تُعلِنُ ثَورَتَهَا عَليَّ، أصبَحتَ – فجأةً – مِحوَرَ يَومِي، أنَا التي كنتُ أُغلِقُ البابَ في وجهِكَ، أعتذرُ مِنكَ، فأنا خائفة، ومثلُكَ أَرَقُّ من أن يُكسَرَ من امرأةٍ مثلي، أرسِل لي أرجوك، فإنِّي لا أعلَمُ إلى متى سأصمُد، وأخَافُ أن أُصَدِّق أنَّكَ رَحَلتَ.

أرجو أَلَّا تأتيَ مُتأخرًا يا عزيزي، لا تُصَدِّق أنَّ البعضَ يَتقبَّلُ فكرةَ أن تأتيَ مُتأخرًا خيرًا مِن أَلَّا تأتيَ، فأنا والانتظارُ في خلافٍ أبديٍّ، يُبارِزُني بالوجعِ والضَّعفِ، وأنقَضُّ عليه بالكِبرياءِ والتَّخَلِّي

أعلمُ أنَّ الأشياءَ الجميلةَ تأتي دائمًا مُتأخرةً، لكنَّني لا أطيقُ الجمالَ إن كانت ضَريبَتُهُ الانتظار، هل تعرفُ معنى أن أنتظرَك؟ يعني أن أجلسَ مع صورتِكَ وأنتَ في وادٍ آخرَ لا تعرفُ ماذا يحدُث، أن أُراقِبَكَ لعلَّكَ تُلاحِظُ غيابي، أن أستيقظَ في الصباحِ على أملِ قدومِكَ، لعلَّكَ تَضِلُّ الطريقَ مثلاً فتأتي وتعتذِر، أو تشعرَ أنَّكَ أخطأتَ في حَقِّي فتُعانِقَني

هل تعرفُ معنى أن أنتظرَك؟ أن أبحثَ عنكَ بين المارَّةِ لعلِّي أراكَ صُدفةً، أن أفتحَ المُحادَثَةَ التي تجمعُنا، لِرُبَّما أجدَ رسالةً مِنكَ تُعبِّرُ عن مدى افتقادِكَ لوجودي في حياتِكَ، أن أنتظرَك يعني أن أقِفَ في المُنتصفِ بين البقاءِ في مأساة انتظاركَ، وبينَ الابتعادِ عنكَ والحفاظِ على ما تبقَّى منِّي

الأشياءُ الجميلةُ التي تكونُ ضَريبَتُها الانتظارُ القاسي، والقلقُ، وخيباتُ الأملِ، لا تبقى جميلةً، على العكسِ، يُصبِحُ جمالُها مُؤلِمًا باهِتًا

ما أخشاهُ أن تأتيَ مُتأخِّرًا أكثرَ ممَّا ينبغي، في وقتٍ لم أعُد فيه أنتظِرُكَ، في وقتٍ يكونُ الملَلُ قد تَمَلَّكني، وفَقَدتُ الشَّغَفَ نَحوَكَ، حتَّى لو عُدتَ مُتأخِّرًا، وكانت بين يديكَ الشَّمسُ والقمرُ، لن أشعُرَ بقيمةِ أفعالِكَ، على العكسِ، سَألومُكَ أكثرَ وأكثرَ على غيابِكَ

ما أخشاهُ أن تَنطفِئَ رَغبَتي تِجاهَكَ، فأرجوكَ لا تَأتِ مُتأخِّرًا، فإنَّ الانتظارَ يُفسِدُني، ويُفسِدُ كُلَّ يَقينٍ بداخِلي

عزيزي، أنا أحبك، والآن أنتَ تعرف مدى خطورة أفكاري عليّ، لذلك لا تتركني بمفردي، فالليلُ يبدو موحشًا بتلك الأفكار التي تنقضّ عليّ، لذا أرجوك، تعالَ، لا تتركني وحدي أُراقبُ وحدتي تتنامى مثل عشبةٍ سامةٍ في قلبي، لا تُفلتني للظنون، فقد كان ذلك أولَ وعدٍ بيننا، أتتذكر؟ أنك لن تتركني لعقلي لحظةً واحدةً، لا تجعلْ عقلي يجرفني ويُشكِّكني في حبِّك لي.

تَنقَبِضُ يدي وتَرتَخي، ثمّ تَنقَبِض، أُحاوِلُ إبعادَ ذلك الغَضَبِ من عُروقي، كَي لا أتسَبَّبَ في صَفعِ أحدِهِم، مُضحِكٌ مَن قالَ إنَّ الغضب شُعورٌ ثانَوي، أو رُبّما كانَ مُحاطًا بِمَجمُوعةٍ مِنَ الأَسوياءِ، لأَنَّهُ لا يُمكِنُ أن يَكونَ شُعورًا بِهذا القَدرِ مِن القُوّةِ مُجرَّدَ شُعورٍ ثانَوي، أكثَرُ ما يُخيفُني في الغَضَبِ هو سَيطَرتُهُ عَليَّ، يَهمِسُ لي بِأن نُحرِقَها سَويًّا، وَنَرى كُلَّ شيءٍ وهو مُتَفَحِّم، الغضبُ يَستَطيعُ تَحريكي تِجاهَ أفعالٍ بِعَينِها، الحُزنُ وَاليَأسُ، رُغمَ خُطورَتِهما، إلَّا أنهُما مَشاعِرُ هادِئَةٌ، تُجبِرُني عَلى الإختِباءِ وَالبُكاء، أمَّا الغَضَبُ، فَصَوتُهُ الجُمهُوريُّ عالٍ، أعلى مِن أيِّ صَوتٍ لِلمَنطِقِ في عَقلِي، كُلُّ ما أراهُ أَمامِي هُوَ رَغبَتي في تَخليصِ جَسَدي مِن تِلكَ المَشاعِرِ، حَتّى إن أفسَدتُ أشياء لن تُصلَح، تَتَحرَّكُ يَدي، تَتَحرَّكُ ساقي، أتصَبَّبُ عَرَقًا، أشعُرُ أنَّ عَينيَّ تُطلِقانِ اللّيزَر، وأعلمُ أن أيَّ رَدِّ فِعلٍ سَأتَّخِذُهُ الآنَ لَن يَنتُجَ عَنهُ شَيءٌ سِوى النَّدَم، لِذلِك أترُكُهُ يَأكُلُني أنا رُوَيدًا رُوَيدًا، يَأكُلُ صَبري وَتَحَمُّلي وَطاقَتي، كَي يَترُكَني خاوِيَةً، بائِسَةً ذابِلةً، ذلكَ أهون عِندي مِن أن أَعتَذِر عَمّا سَيَبدُرُ مِنِّي، مُشكِلَتي الأَزَلِيَّةُ أنني لا أمتَلِكُ وَسَطًا في مَشاعِري، ذلِكَ الحَدُّ العادِيُّ لَيسَ في قامُوسِي، هُناكَ مَراحِلُ للحُب مِنَ الهَوى حَتّى الخُلَّة، أمّا الغَضَبُ، فإذا بدَأ يَسيرُ في عُروقي، لا يَتَدَرَّجُ في شِدَّتِهِ، بَل يَنكَبُّ مَرَّةً واحِدَة، وَلا يُحَدِّدُ جِهَتَه، وَلا يُحَدِّدُ حُجَّتَهُ وَمَنطِقَه، لا أدري لِماذا أنا غاضِبٌ الآن، وَلِماذا أنتَظِرُ مِنهُم أن يَأتُوا هَرَعًا لِتَهدِئةِ غَضَبي، أنا غاضِبٌ وَحانِقٌ وَغَيرُ قادِرٍ على السَّيطَرَةِ عَلى اِنفِعالاتي، غاضِبٌ وَأُودُّ اقتِلاعَ عُيُونِهِم مِن مَكانِها، كَي يَنظُروا إليَّ وَيُدرِكوا فَداحَةَ خَطَئِهِم.

هل تعلمين يا ميلينا أنّني لو كنتُ أعلم متى سأُقابل الموت، لظللتُ أكتب وأكتب؟ ستكون نصوصًا صريحةً وقتها، لن أتخفّى في التوريات، ولن أطمُس الأسماء، سأحكي بكل صدق، سأحكي عن الظلم الذي يحوم حولنا، عن البلاد التعيسة والطفولة المُشردة، سأحكي عن الحُبّ الذي لا نعرف عنه إلّا صعوبته، وكيف يقتلوه وهو طفل في رحم أمه، سأكتب عن الحياة وإنّها لم تُحبّني قَطّ، أنّها كانت دومًا تتعمد أن تأخذ ما أحببته، إن كان هناك عالِمٌ سيدرس نظريةً عن العلاقة العكسية بين الرغبة والفقد، سأكون أنا أول من تُمارس عليهم النظرية، سأكتب عن وحدتي ومرضي، عن حقيقتي المُتَوارِيَة خلف القناع، عن غضبي الذي يحوّلني لوحشٍ كاسر لا أعلمه، عن ذلك الصوت الذي في رأسي، الذي يتحكم في كامل جسدي، الذي يلتهمني ببطء، سأكتب لصديقي وأخبره أن يُسامحني لكذبي عليه بشأن مرضي، سأكتب عن القهوة، سأتغزل في القهوة، رغم أنّها تضرّني بشدة، أعترف، ولكنها تُسّكِن تلك الأفكار التي لا ترضيني ولن ترضي الله، سأكتب عن محاولاتي الناجحة والفاشلة، سأكتب لجميع من أُحبّهم، سأعتذر عن عدم تواجدي في لحظاتهم المهمة، سأُعانقهم بشدة، سأكتب عن أيّ شيء إلّا اللحظات الأخيرة، لن أكتب حرفًا عنها، لحظات الوداع عقلي لا يفهمها، يقف عندها، وفي علامة استفهام تدور به "لماذا؟" لا أعلم، لذلك إن كنتُ أعلمُ موعد موتي، لن أودّعهم بطريقة مباشرة، لن أترك لهم رسالة مثل فان جوخ، وأجعلهم يتمنون لو أنّهم ودّعوني، وأجعل الشُعراء والكُتّاب يتغنّون باسمي في قصائدهم التعيسة،

ويصلّون لأجلي في طريقهم للمقابر، ما هذا يا رِفاق؟ لا أريد شكرًا لكم، أنا كتبت ما يكفي عن الوداع، والخيبات، والموت، وتلك الأشياء، أيمكنكم أنتم أن تكتبوا عن الجمال والحياة والورود والحب؟.

عزيزي فلان، لا أريدُ أن أفقدَ قدرتي على تشكيلِ الحروفِ بيديَّ، قدرتي على أن أُزخرفَ المُعاناةَ، هذا الشيءُ انتشلني من أيامي القاتمة، وجعلني أصلُ إلى هذه اللحظةِ التي أكتبُ لكَ فيها، وأنا لا زِلتُ أتنفّس، لا يوجدُ من يمكنني مصارحتهُ بحقيقتي البائسةِ غير تلكَ الصفحاتِ التي لا أقوى على نشرِها في كثيرٍ من الأحيان، لأسبابٍ أنت وحدكَ من يعلمها، أنتَ وحدكَ من أستطيعُ إخبارَه بأنني خِفتُ عندما شعرتُ أنني سأنجرفُ مُجددًا في طريقٍ لا أعلمُ نهايته، مرَّ الكثيرُ مِن الوقتِ مُنذ أن شعرتُ بذلك، اعتقدتُ أن النهايةَ ستكونُ سعيدةً يا الله، سيُسدلُ الستارُ وأنا الفائزة، وهُم يُصفّقون، ولكن يبدو أنها حَلقةٌ لا تنتهي، أظنُّ أنني خلالَ دوراني بها فقدتُ سلامي، ونسيتُ ما صنعتَهُ أنتَ بي، أصابني شعورُ التوتّرِ والقلقِ مرةً أخرى، ورغبتُ في انتزاعِ روحي على أعتابكَ؛ لتُشكّلها من جديد، لعلَّ وعسى أكونُ شخصًا أفضل، شخصًا لا يُوصمُ بالسوءِ وتَحجُّرِ القلب، شخصٌ يستطيعُ أن يصُدَّ الأذى، لا أن يبتلعه لأنه غيرُ قادرٍ على قولِ "لا" شخصٌ يُخرجُ ما بداخله دون أن يُفكّرَ مئةً مرة، شخصٌ يستطيعُ الحبَّ والعطاء، شخصٌ يعلمُ من يكون، لا يرضى بفُتاتِ المشاعر، أظنُّ أنني أحتاجُ أن تقولَ لي: "هَلُمَّ خارجًا من وحدتكَ وبؤسكَ، وتعالَ معي" رتّبني مُجددًا يا الله، فأنا لا أعرفُني.

قُلتُ إنَّني سَأنسَى أمرَكَ تَمامًا، وإنَّكَ إذا لُحتَ لِخَيالي سَأتجاهلُكَ وأتَشاغَلُ عَنكَ حتّى تَتَبَدَّدَ، ولكِنّي كُلَّما أمسَكتُ وَرَقةً وقَلَمًا مَرَرتَ على بَالِي، شُقوقُ يَدِي تَتَذَكَّرُ ما أُحاوِلُ نِسيانَه، لِذَلِكَ وبدونِ وَعي، أجِدُنِي أُعيدُ سَردَ تِلكَ الواقِعَةِ مِن أوَّل وجَديد، حتّى مَلَّت خُروفي مِنّي واشتَكَت مِن إلحاحِي، أتَناسَى حَجمَ الجُرحِ الغائِرِ في صَدري وأتَحدَّثُ عن ذِكرياتِنا الجَميلةِ فَقَط، حتّى أُلاحِظَ نَظَراتِهِم المُتَفحِّصَةَ ويُخبِروني إنَّني لم أتَغَيَّر، لا زِلتُ لا أُصَدِّقُ ما لا يَروقُ لِي، وماذا سَيَحدُثُ إذا صَدَّقتُ؟ هل سَتَأتي وتَعتَذِرُ مِنّي؟ هل سَأطمَئِنُّ مُجدَّدًا وتُزيلُ عَنّي الظُّنونَ الهائِجَةَ؟ هل سَأستَطيعُ أن أكتُبَ مُجدَّدًا دونَ أن يَجثُو ذلكَ الشيءُ على صَدري ويُكَبِّلَني ويَنتهي بي المَطافُ إلى فِعلِ أيِّ شيءٍ غَيرِ الكِتابة؟

لَن يَتَغَيَّرَ شَيءٌ إنِ اعتَرَفتُ، سِوَى أنَّهُ سَيَزدادُ حَنَقي تُجاهَكَ، وتُجاه نَفسي.

مرحبًا يا عزيزي

مسموحٌ بتذمّرك من قدومي، أأتي وأجرُّ خلفي رائحةً مُخيفةً تُنغزُ الذكرياتُ في عقلك، ذلك العقلُ الذي أصدرَ بيانًا اعتراضيًّا على قرارك المُفاجئ بالرحيل، ونَدَّدَ بتجاهُلِكَ التفكيرَ في الأمرِ برمّتِه، حتى انغمستَ في الإنكارِ مدّةً لا تقلُّ عن ستّةِ أشهر، ولكن ما طرأ خلالَ هذه الشهورِ أشياءُ كثيرة، توقّعتُ بعضَها، وفاجأتني أنتَ بالباقي، وبسببِ هذه الأشياءِ، هذا النصُّ لن يكونَ بكاءً على الأطلالِ، أو تيمُّنًا برجوعِك، بل رسالةُ اعتذارٍ لنفسي، لأنني انغمستُ في ذلك المُستنقعِ القذر، لأنني فقط أحببتُكَ، يا للسُّخريَة...

هل تعلم يا عزيزي، أنَّ رحيلَك قد تسبّبَ في وعكةٍ نفسيّةٍ قاسية، سلبتْني حروفي وقدرتي على الإفصاح، وجعلتني أُرغمُ عقلي على السُّكوتِ، كي لا أدخلَ في دوّامةٍ لا أخرجُ منها إلّا بموتي، وكلّما ردّد أحدٌ سيرتَك، تذكّرتُ لكَ الجيد فقط، أنّك كنتَ - في يومٍ ما- حبيبي، الذي لم أخجل يومًا من البوحِ لهُ بكلّ ما أدفنُه في أعماقِ قلبي، لم أخجلْ من أن أُريك اتّهاماتي القاسية لنفسي، وأُحبُّ حين كنتَ تُسقِطُها عنّي، ولكن ماذا جرى يا حبيبي؟ لماذا تشوّهتْ ذِكرياتُك؟ ولماذا سَخطَ عليكَ عقلي وقلبي؟

لم يجذبني الحنينُ إليك هذه المرّة، بل النّدم، ومثلي لا يندم، مهما كانت تجربتُه قاسية، ولكنّكَ كنتَ نوعًا جديدًا، نوعًا جعلني أستيقظُ على رائحةِ جثثِ الفراشاتِ الميّتةِ في رئتي الآن يا عزيزي، أُصدر بيانًا رسميًّا منّي، وأُخبرُك فيه وبكلّ شجاعةٍ، أنّني مزّقتُ صورَنا معًا، رأيتُ يدي التي طالما كتبتْ

لكَ مُراسلاتٍ تُغازلُك فيها، وهي تمزّقُ صورَك؛ ابتسامتُك، وغمازتُك التي دائمًا أحببتُها، وعيناكَ اللتانِ وصفتُهُما بعيونِ الغِزلان...

مزّقتُ كلَّ شيءٍ يخصُّك، وهذا ما لم تعهدْني عليه يا صديقي، أليس كذلك؟

لستُ أنا مَن تتغنّى بالتخلّصِ من الذكرياتِ الحزينة، ولكن افهمْني، أنتَ لستَ ذكرياتٍ حزينة، بل ذكرياتٍ مُقرفة، كلّما مرّتْ على خاطري شعرتُ برغبةٍ في صفعِ نفسي، وأُردّدُ في داخلي كلامَ أُمِّكَ لي: "إنّه كان يوم ما طلعتلوش شمس لما قابلتك" مقابلتُك لي كانت يومًا ما طلعتلوش شمس!أنتَ مَن أخبرتني أنّ عينيَّ تُشبِهانِ الشّمس، ولم تستطعْ التوقّفَ عن النظرِ إليّ، أصبحتُ أنا الآن سَوادَكَ القاتم!

لا بأس يا حبيبي، لا بأسَ أبدًا، لا بأسَ بدموعي التي ذُرِفَتْ بحرقةٍ حين رحلتَ، لا بأسَ بالجرح الذي تسبّبتْ فيه كلماتُك الأخيرة، لا بأسَ بمحاولاتي الفاشلةِ لخياطةِ أجزاءِ علاقتِنا المُمزَّقة، لا بأسَ بأنْ تجعلني أصبحُ ما لا أُطيقُه الآن، لا بأسَ بأنَّ أجزاءً من روحي الجميلة قد هُدِرَتْ عليك، ولا بأسَ بأنّك شوّهتَ ذكرياتي الجميلة، بكلّ ما أُحبُّ من كُتبٍ وورود، ومطر، والإسكندريّة... المدينةِ التي عشتُ فيها طفولتِي، جعلتَني لا أُريدُ أن أَحطوها مجدّدًا، لو كان بإمكاني مسحُ أيّ شيءٍ يخصُّك، لفعلتُ، ولكن هناكَ أشياء لا أستطيعُ المساسَ بها، كيدي التي كانت في خاصَّتك، وعينيَّ اللتينِ كنتَ تتحدّثُ عنهما كثيرًا، لو كان بيدي، لمزّقتُ كلَّ ذكرى لكَ بداخلي، لأنّه لا معنى الآن لحديثِك أو لِمُلامساتك تلك التي كانتْ ذاتَ أثرٍ

عميقٍ في روحي، الآن نحن شيءٌ أكبرُ من كونِنا غُرباء، أعلمُ أنّني أدّعي القوّة، وكأنّني أستطيعُ نسيانَك في غمضةِ عين، ولكنّني لا أستطيع، حتى عندما رأتني أُختي مُنكبَّةً على الورقِ وأبكي، تحجّجتُ بأنّ عينَيَّ دامعتانِ من دخانِ سجائري فقط، أمّا أنت؟ فلا تعني لي شيئًا أبدًا

وربّما هذه ستكونُ آخرَ حروفٍ تُرسَلُ إليك،

فأنتَ حقًّا لم تَعُدْ ذا قيمة، ورُبَّما تَصفحُ عنّي حروفي، وتَعودُ إليَّ عندما أتوقّفُ عن الكتابةِ لك.

الخاتمة :

كتبتُ كثيرًا من المقالاتِ والخواطرِ على مدارِ حياتي، نشرتُ بعضَها واحتفظتُ بالباقي لنفسي، كتبتُ كثيرًا حتى كادتْ أصابعي تنزف، أحاول إخراجَ شيءٍ ما عالق بداخلي لا يخرجُ إلّا بالقلم، وكم مرّتْ ليالٍ لا أستطيعُ إمساكَ القلمِ فيها، لا أقوى على رصِّ الحروف في سُطورٍ، ولا يتجمّعُ شتاتُ عقلي في نص، وتلك من أسوأِ الليالي التي قد تمرُّ على شخصٍ يتحدّثُ بيديه، إن فقدتُ قدرتي؛ أصابني الخَرَس

كتبتُ كثيرًا، وقد فلحتُ في نيلِ إعجابِكم، منكم من يُصفّقُ لي، ومنكم من يُقدّمُ لي الدعمَ بكلِّ طُرُقه، أحببتم ما قرأتُموه، ولكنّكم لم تقرؤوا مَن كتب، لم يعلمْ أحدٌ ماذا يعني أن تعيشَ وفي داخلك شيءٌ مظلمٌ قد أوشك على ابتلاعك، أن يمرَّ الوقتُ بك وأنتَ ثابتٌ في مكانك، كساعةٍ جميلةٍ توجدُ في شقّةِ عرسانٍ جُدُدٍ ولكنّ عقربَها مكسور، دعني أُخبرك شيئًا يا عزيزي، ويؤسفني القول فأنتَ كلُّ ما أملكُ الآن، لا أُقلّل من قيمةِ وجودِك، ولكن يبدو الأمرُ غريبًا أن نظلَّ أنا وأنتَ في الساحةِ لوحدِنا، أكتبُ لك القصائدَ التعيسة، وتقرؤُها وتُصفّقُ لي وأنتَ متأثّر، أهذه حياةٌ نستحقُّها أنا وأنتَ؟ أبدًا يا عزيزي، نحن نستحقُّ أن نُحَبّ، أن نكتبَ عن الشوقِ لا الشوك، عن الحبِّ لا الكوارثِ الطبيعيّة، نكتبُ عن مصدرٍ آخرَ للدفء غيرِ الشمس، نستحقُّ أن يتمسّكَ أحدٌ بنا، يأخذَ أحزانَنا على محملِ الجدّ، يُؤذيه غيابُنا، يقرأ كلماتِنا بقلبِه، يقرأ عيونَنا، ولو لمرةٍ واحدة لا تسيرُ الأمورُ بشكلٍ خاطئٍ بيننا، ولا يحلُّ الخريفُ فجأةً فتتساقطَ أوراقُ علاقتِنا، دعك من تجاهُلي إنّها كانت ذاتَ

جذعٍ مهترئ، جذورٍ ضعيفة، ورعايةٍ منعدمة، ولكن كنّا نستحقُّ فرصةً واحدةً نُحييها مجدّدًا، لا أن ننظر إليها وهي تفقدُ جزءًا جزءًا منها ونحن نستمعُ لفيروز ونحتسي القهوة، وكأنّه مظهرٌ شاعري.

دفتري المُهترِئ

إذا لم تَكُن مِن الذينَ تُرِكوا في
مُنتَصَفِ الطُّرُقات، فهذا الكِتاب لا
يَعنيك،
أعِدهُ إلى مَكانِهِ، وغادر

دار يافور
للنشر والتوزيع
01555191983